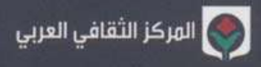
إيريك إيمانويل شميت

طائفة الأنانيين

رواية

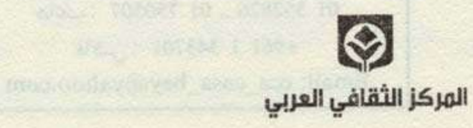


إيريك إيمانويل شميت

طائفة الأنانيين

رواية

ترجمة: أحمد الويزي



المركز الثقافي العربي



إيريك إيمانويل شميت

طائفة الأنانيين

العنوان الأصلي للكتاب:

La Secte des Égoïstes

الكتاب

طائفة الأنانيين

تأليف

إيريك إيمانويل شميت

ترجمة

أحمد الويزي

الطبعة

الأولى، 2014

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-674-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

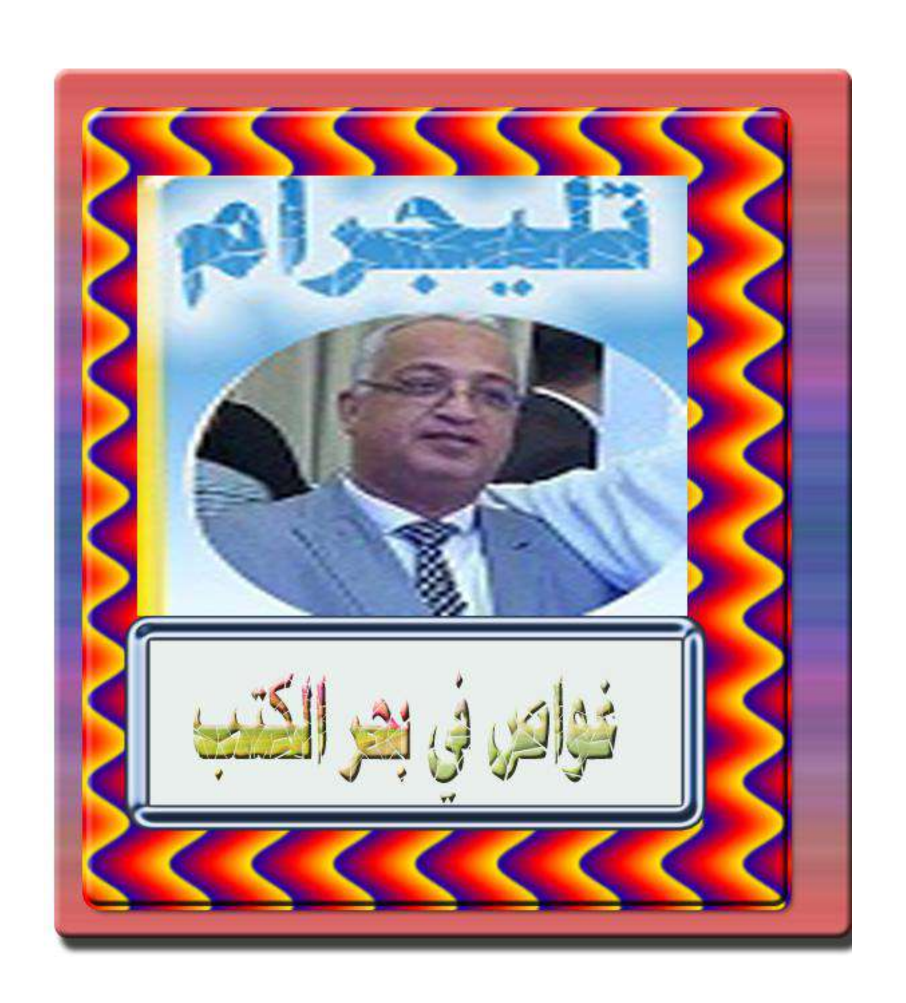
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com


تليجرام
غواص في بحر الكتب


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

حدث ذلك مساء يوم من أيام كانون الأول/ ديسمبر، في المكتبة الوطنية.

بعدما دبّ التعبُ في أوصالي، من فرط ما انشغلتُ طيلة النهار، بملء الجذاذات، والتسجيل، والتحشية، والتعليق، والتمحيص، والتأمل، إلى أن كلّتْ عيناي، وثقُلتْ يدي؛ وضعتُ قلمي الريشة، ودفعتُ بالمقعد إلى الخلف.

من حولي، تناثرتِ الأجسامُ المنكسرة على مكاتبها، والرؤوسُ الصلعاء التي تلمع تحت أضواء المصابيح، والحيطانُ العالية المؤلفة من الكتب المغلقة، والصامتة، والعصية على النفاذ. سائلٌ دبقٌ كئيبٌ ظلّ يستبد بقاعة المطالعة الكبرى، ويُجمِّدها في وضعية الصمت الخامل. لا شيء كان يتحرك. رائحة الغبار الخالص، من قبيل ما يُنفض كل صباح، ظلتْ تتلبَّد في الأجواء.

«أنا أحلم... ما عدتُ أحيا... لقد حكمتُ على نفسي بالبقاء متشبثاً بسراب...»

لأول مرة في حياتي، شعرتُ بالكراهية إزاء ما كنتُ أقوم به من أعمال البحث. حنتْ مني نظرةٌ إلى الملفات التي تكدست أمامي، وظلت منغلقة لسنوات مديدة على عملي المتواصل في البحث

والتنقيب، وعلى بحوث غامضة في لغويات القرون الوسطى، التي لم تكن تعني أحداً، ولا حتى أنا بالضبط؛ فشعرتُ وكأنها أشياء بعيدة وغريبة عني.

تسلَّل ظلٌّ معتمٌ من أعلى، عَبَر السقيفة الزجاجية القاتمة.

جُلتُ ببصري، متفحصاً ما كان يحيط بي.

لا تزال الرؤوس الصلعاء منشغلة بالتفكير. لقد كان بمستطاع المرء أن يشك في استمرار أصحاب تلك الرؤوس على قيد الحياة، لولا العيون التي كانت تتحرك منها داخل المحاجر، وخلف زجاج النظارات، بين الفينة والأخرى. لقد كان هؤلاء أشبه بوَزَغة جائمة في مكانها، لا تنشغل سوى بهضم الحشرة التي اصطادتها، وهم منكبون على القراءة، والتهام المعارف، لإشباع أذهانهم بما هو أساسي من العالم. لكم تغدو الأبدية مضجرة، حينما تعبر الزمن. . .

حينها، نهضت من مكاني.

باستعلاء، نظرتُ إلى كافة الرؤوس الصلعاء. ويْ، ويْ! لا يكادون يشكّون في أنفسهم، أبداً! . . .

بعد ذلك، دلفتُ إلى القاعات التي تقع بالسراديب، وتضم لوائح الكتب، وأنا أرسم على وجهي ابتسامة ساخرة.

قررتُ أن أخرق القانون، وأنكبّ على قراءة شيء غير مفيد! أن أقرأ أي شيء، كيفما اتّفق. لقد قرّ قراري إذاً، على هتك تلك القاعدة المعتمدة في البحث، وعلى الاستهتار بكل شيء، واختيار القراءة لغاية المتعة، وحسب. . . لقد قرّ قراري على ارتكاب ما يُعتبر في البحث، جناية! . .

مشيْتُ بجفنين مغلقين، تائهاً بين الكاتالوغات المتكتلة في

الأدراج، ثم فتحت بالصدفة دُرجاً منها، وكان قصدي أن أخرج منه، جذاذة من الجذاذات، كيفما اتفق. وهكذا صار. وضعتُ طلبي لدى القيّم على المكتبة، وأنا لا أعرف من الجذاذة سوى رقم الكتاب.

ومن جديد، عدتُ إلى مكاني في فضاء القاعة الكبرى، وجلستُ أنتظر لمدة عشر دقائق، وأنا أضحك في قرارة نفسي، من جرّاء الفرح الداخلي العارم الذي اعتراني.

جاءني عامل القاعة أخيراً، يحمل كتاباً قديماً سُفّر بجلد أحمر، به حواف بنفسجية اللون. كان كتاب: **المعجم القومي**، من تأليف فوستيل الهويلييري، ونُشر في أربعة أجزاء سنة 1798، من قِبل نيسيفور سالفان.

يا للسعادة!

لقد ظللتُ أجهل تماماً، بوجود هذا الكتاب.

فتحته بطريقة اعتباطية، وأنا ما زلتُ مستسلماً لمبدأ الصدفة، فوجدتُ مكتوباً بأعلى الصفحة 96، المقالة الآتية:

الأنانية (كلمة فلسفية): يُدعَى أنانياً كلُّ شخص يعتقد أنه يوجد لوحده في العالم، بينما البقية ليست سوى مجرد أطياف وأوهام. وقد وُجد بباريس للعار الشديد الذي حاق بالعقل البشري! رجلٌ ارتبط اسمه في مطلع القرن، بهذه النزعة العابثة، وهو المسمى غاسبار لانغونهيرت (Gaspard Languenhaert)، ذو الأصول الهولندية. وقد قيل إنه كان ذا جمال جذاب، وهيئة شديدة الاتساق، بالشكل الذي كان وحده كافياً، لأن يجعل النساء يضمنّ له النجاح بباريس،

غير أن الفلسفة ظلّت مع ذلك هي خليلته الحقيقية؛ وكان هو بذلك يرغب في تلميع نجوميته، بابتداع مذهب من مذاهبها. وهكذا، ظلّ ينطلق وهو يصبغ فكره بصبغة فلسفية إنجليزية، كافية لوحدها بالإمساك بالمعضلات، لكنها لا تكفي البتة مع ذلك، لأن توجِد لتلك المعضلات حلولاً؛ [ظلّ ينطلق] من ملاحظات معينة مقبولة، كي يستخلص منها نتائج، لم تكن لتُحتمَل. وكان يقول: فسواء صعدتُ إلى الأعلى، أو هبطت إلى الأسفل السحيق، فإني لا أخرج عن ذاتي بالمرة، لأن ما من شيء موجود أبداً، سوى فكري الخاص. وعليه، لا تعدو الحياة أن تكون سوى مجرد حلمي، أنا. ومن ثمة، فإن كل الواقع إنما يتجمع في ذاتي أنا، فقط...

ووفقاً لرواية معاصريه، مرّ هذا الشاب بشكل مريح، من الشك المشروع الذي يمكن أن يطال حدود معارفنا، إلى ذلك الإثبات الذي أشار فيه بأن الأشياء لا توجد إلا في ذاته، **ومن أجلها**. وهكذا، ظلّ ينتقل عبر الصالونات، بحثاً عن رفقة كثيرة العدد، ليعلن على أعضائها أنه الموجود الوحيد في العالم، مستدرجاً بذلك محاوريه للنقاش، كي يفسِّر لهم بأنهم غير موجودين بالمرة، وكي يلحّ عليهم، بينما الكأس في يده، بأن المادة، إنْ هي إلا مجرّد فرضية لا نفع لها؛ وهو في كل ذلك، يتحدث، ويستفيض في الحديث، ويحاجج، مقتفياً أثر الظرفاء من الأعيان، أينما حلوا أو ارتحلوا، ليثبت للكلّ أنه الضامن الوحيد للوجود، وأن استمرار الكون أمرٌ متروك لحسن إرادته. وهكذا، ظلت

الناس تستحسن مظهره بينها، وتتسلى بأقواله، إلى أن غدا في ظرف وجيز جداً، ذلك الأنيس الفريد من نوعه، الذي صار حضوره ضرورياً في كل صالون. إلا أن رجحان العقل، سرعان ما أبعد عنه كافة تلك الآذان الفضولية، التي ظلت تصغي إليه، في ما بعد. لقد عمّرَ نجاحه مدّة وجيزة، وحسب. إذ لم تشكّ الناس في صدقية ما كان يدعيه، ويروِّج له، وهو ما عنى لها أنه كائن مجنون، وبذلك لفظته العقول السليمة في الحين، وانصرفت عنه.

وقد أثبتت الوقائع الموالية، أن الناس كانت حقاً منصفة في حكمها، إذ إنه وبعدما تمّ إقصاؤه، وأبعد عن العالمين، ما لبث أن أنشأ **الطائفة الأنانية**، ليتمكن من إعادة اجترار هذياناته. وكانت هذه الطائفة التي تتكون من ثلة من الأفراد، الذين يعتقد كل واحد منهم، أنه المالك الوحيد للعالم كله، يجتمعون في كل أسبوع، طيلة سنوات بعينها، في قرية مونتمارت. تُرى، ما الذي كان بمستطاع هؤلاء أن يتداولوه في ما بينهم؟ من المحتمل جداً أنهم كانوا يتكلمون، إنما هل حصل حقاً، تفاهم بين بعضهم، حول رأي أو قضية؟ لقد انتهى الأمر **بالطائفة الأنانية** إلى إغلاق الأبواب، للنقصان الذريع في مريديها؛ وبعد ذلك، نشر غاسبار لانغونهيرت **مقالة في الميتافيزيقا الجديدة**، إلا أنه انتهى مرة أخرى، لغياب القراء وانعدام الجمهور، إلى البقاء وحيداً. لكن ما أهمية ذلك، بالنسبة إليه؟

لقد مات الرجل سريعاً بباريس، سنة 1736، بعدما

أفرط في تناول جرعة قوية من الأفيون، لفرط تعبه من حمل أثقال العالم على منكبيه، من دون شك. وقد تبين بالملموس، حينما مات، أن لا أثر له في معاصريه، ولا في أي كان ممّن جاء بعده.

لكن، ألم يكن سيقع في التناقض الذريع مع مذهبه، إنْ تحقَّق له ذلك؟

تملّكني الذهول.

هكذا، إذن، استطاع أحدهم في يوم ما، من تاريخ هذا العالم، أن يُنظّرَ لما ظللتُ أشعر به في أغلب الأحيان، وهو ذلك الإحساس الذي تملّك علي مغالق نفسي، قبل قليل... وذلك الانطباع المُعاف الذي جعلني أرى أن الآخرين، كما الأشياء أيضاً، كائنات لا وجود لها... وتلك الفكرة التي جعلتني أعتقد أني وحدي، ذلك الوعي الحي والتائه وسط كونٍ من الأطياف والأحلام... وهذا الشك الدبق والزّغِب والمداهم، الذي يُفرِغ الواقع من حقيقته...

أجلتُ بصري من حولي. لم تكن تلك الرؤوس الصلعاء قد لاحظت أي شيء يذكر من فرحي.

أسرعتُ نحو السراديب. كانت بي حاجة كبيرة إلى معرفة أشياء أخرى أكثر، عن تلك الشخصية الفريدة التي اكتشفتها. كنت بحاجة إلى قراءة: **مقالة في الميتافيزيقا الجديدة**.

زال عيائي وتعبي بسرعة، فتصديْتُ إلى تحريك أمتار عديدة من الجذاذات، ورفع كيلوغرامات لا يُستهان بها من الفهارس، وتقليب عيني ذات اليمين وذات اليسار، لفحص شرائط الميكرو - فيلم، كما

أني ناديت على عمال المكتبة، كي يهبّوا إلى نجدتي. . . لقد كنتُ ملزماً بمعرفة كل شيء عن غاسبار لانغونهيرت.

لكن ذلك، لم يُجْد في أي شيء! لم يكن ثمة من شيء يذكر، لا عنه ولا منه.

ثم إذا بي أتذكّر، في خضم انتفاضة راجفة، أن القرن الثامن عشر لم يكن دقيقاً في رسم أسماء الأعلام، وفي تثبيتها؛ لذلك، حاولت البحث من جديد، وأنا أستعملُ جميع التنويعات الممكنة، على الاسم الذي كنتُ أبحث عنه: لانغونهيرت، فان لانغونهيرت، فان دو لانغونهيرت، دو لانغونهيرت. . . لكن ما من شيء، كان مثبتاً. ظلت الكاتالوغات خرساء، لا تنطق سوى بالصمت.

شعرتُ بالتعب يخدرني، إلا أني تمالكتُ زمام نفسي. عضضتُ على أسناني، وقفزت على قدمي، وأنا أقنع نفسي بأنه يلزمني التوصل إلى معلومة موضوعية، قبل مغادرة المكتبة.

حينها، راودتني فكرة غريبة، وهي أن أتحقق من تاريخ وفاته في شرائط الميكرو - فيلم. تُرى، ماذا تقول السجلاّت الملكية؟ لا شيء يوجد بها. وسجلات غرفة الاحتفاظ بالجثث التابعة لمحافظة الشاتولي؟ لا يوجد شيء بها، هي الأخرى. استمررتُ أبحث في سجلات الأسقفية ذاتها، رغم أني كنت شاكاً في إمكانية إيجاد اسم منتحر مسجَّل بها؛ لكن ما من شيء وُجِد في تلك السجلات. ثم قرأتُ لائحة التراخيص بالدفن، التي منحتها كافة المقابر الباريسية، والعقودَ المحررة من قِبَل الموثقين، والوصايا، وحاولتُ تجريب كل شيء، بما في ذلك كافة الأسماء الممكنة والتواريخ، وانهمكت أوالي تتبّع آلاف الموتى أمامي، متلفظاً لأول مرة منذ قرون، بأسماء

أولئك الذين لم يعودوا سوى رميم، وديدان، وقذارة، محرّكاً الظلال، ومازجاً بين الأشباح... لكن ما من إشارة كانت هناك، أيضاً.

وبذلك، يكون غاسبار لانغونهيرت صادقاً مع نفسه، لمّا ظنّ أنه لم يكن سوى يحلم بالعالم، ما دام أن هذا الأخير قد توقف عن الوجود فعلاً، في اللحظة ذاتها التي غادره فيها خالقه، فنسي بالتالي حتى تسجيل غياب الشخص، الذي ظلّ يحلم به...

القليل من اللغز مستفزٌّ للذهن، والكثير منه مرهقٌ!

شعرتُ بطبطبة على كتفي. كان عمال القاعة يرددون على مسمعي، أن المكتبة ستُغلق أبوابها. ثم حين لم أنتبه لما ظلّوا يرددونه، أمسكوني من ذراعي، وقادوني باتجاه الساحة.

وهناك، أفرغتُ مثانتي، تحت مشهد القمر الشاحب، وبين القمعيات الحمراء والنجوم، وأنا أحلم بمصير ذلك الرجل الذي ظنّ أنه كان الكل في الكل، فلم يتبقَّ منه أي شيء.

وكان يقف على مبعدة مني، كلب رفع بصره إلي في دهشة، متعجباً من قدرتي على إفراز كل تلك الكمية من البول، دفعة واحدة.

وعلى أحد المزارب القريبة، كان ثمة صرصور يؤلف برنامجه الموسيقي، لهذه الليلة. أما القمر، فلم يكن يفكّر في أي شيء.

كان اليوم الموالي يومَ أحد، وظللتُ أنا أكره أيام الآحاد. كان بودّي لو خيّرتُ، أن أتحاشى ذلك اليوم غير المُجدي؛ إلا أن المؤامرة العالمية المُنَظِّمة - قانونياً وعقدياً - للحياة والكنائس، إلى جانب الموافقة الراضية لآلاف الأغبياء، ظلّتا تجبرانني على الانخراط في حياة الهزل، أنا الذي ما أحببْتُ سوى الجاد من الأعمال. وهكذا، صار محكوماً عليّ بالعطالة والفراغ، بعدما ظللتُ أصطدمُ في مثل ذلك اليوم، بأبواب المكتبات الموصدة.

ومع ذلك، ظلّ صباح الأحد دائماً، يُشعرني بأني متَّسخ ومتعب، وأن ثمة مجموعة من الأواني كالحة الوجه، تنتظرني في المغسل، وأن طبقات الغبار قد تراكمت، وصارت تتماوج على جنبات الحيطان، وأن ملابسي - أنا ذلك الفرد الأعزب - تنتظر مني أن أنظفها... لذلك، ما كنت أجد لي من بدٍّ، غير العكوف على المسح والتنظيف والكنس، إلى أن يحلّ المساء.

لكن منذ صباح ذلك الأحد، ظلّ غاسبار لانغونهيرت يترقبني، وكأنما هو بات يجلس بالقرب من سريري. لذلك، تركتُ المكنسة والماسحات جاثمة في أماكنها، وخرجت وأنا في قمة ابتهاجي، لأحلم في حرية وراحة.

لم يعد ذلك المجهول، لانغونهيرت، يتركني أبداً.

جنبات نهر السين تتناسب كثيراً مع التأمل الحالم، لأنها تشيع - في الخاطر - الطمأنينةَ، بفعل اتساقها المتناغم، كما أنها - لاتساعها وفسحتها - تحرّر الذهن.

وما هي إلا لحظة، حتى انخرطت في إنزال اللوم على نفسي، لاندفاعي المتحمِّس ليلة أمس: فهل أكون فعلاً، توصلتُ إلى اكتشاف ما؟ وهل وُجد ثمة حقاً، ذلك المدعو غاسبار لانغونهيرت؟ بدا لي كل شيء غريباً بشكل مفرط: اختفاء كتاباته، وتجاهل السجلات التاريخية له، وخاصة خاصة ذلك الغياب غير المبرّر، لكل ما يتعلق بسجلٍّ حالته المدنية... لم يكن غاسبار لانغونهيرت من دون شكّ، سوى ضرب من الخدعة المخاتلة، التي قد يكون ابتدعها فيستيل الهويلييري، بمكر، وضمّنها متن كتابه. لقد كان أهل ذلك العصر يستعذبون مثل تلك الكتابات المُشبَعة بالتخاريف.

ثم إذا بي أشعرُ - في نوع من الفتور - بالحسرة، نتيجة إهمالي الأعباء المنزلية...

توقفتُ بالقرب من منطقة البُّونْ نوفْ، عند باعة الكتب القديمة. وكدأب هؤلاء دائماً، كانوا يعرضون في حوانيتهم، النوادر المعهودة نفسها، من قبيل الروايات القديمة ذات النوع الرديء، التي لا تصلح سوى لأن تكون رافعة تسند قاعدة إحدى الخزانات، ومن قبيل موسوعات طبية وتقنية عفا عنها الزمن، كما قد يجد المرء لديهم بوفرة، كتبَ التقويم الفلكي، والتقويم الميلادي، وملصقات الإشهار، والبطاقات البريدية القديمة. لذلك، تركتُ نظري يسرح في مرعى الكتب، التي تكدَّست بها تلك الحوانيت، وقد صبغتُ مشاعر

تعطُّلي عن العمل، بما ينمّ عن الفضول وحبّ الاستطلاع.

ثم ما لبث أحد المجلدات المعروضة بحانوت تحت شجرة الدّلب، في جهة الغراند زوغيستان، أن شدّ انتباهي، ففتحته، وكان بدفّتين خاليتين من أي تنويه، أو إشارة إما للعنوان، أو للكاتب، سواء من جهة الصدر أو جهة الظهر.

لقد كان بعنوان **مجمع لوحات كبار القوم**، ويتضمّن جملة من الصور المستمدّة من رسوم فنية، مؤلِّفاً بذلك أضمومة فنية نشرتها مطبعة مالان مالي، ريفيليج دو روا، سنة 1786.

أخذت في تصفّح المجلد.

توالَت بين يدي مجموعة من الصور البذيئة، التي تمثل كلّاً من راسين، وكورنيي، وبوالو، وريشليو، وبيرجيراك، وفونتيي، ثم إذا بشيء ما يستوقفني، ويشدّ انتباهي. عدتُ إلى الصفحة السابقة، وقرأت ما أثار بالفعل انتباهي: ثمة على ظهر إحدى الصفحات، كتابة تبرز على مستوى الأسفل، تنوّه إلى الصورة الموالية، مشيرة إلى أنها لغاسبار لانغونهيرت، مثلما رسمه فيجييه، وفق اللوحة التي رسمها مالكومبر. أسرعت عيناي تقفزان إلى الصفحة المجاورة، لرؤية الصورة المعلن عنها.

يا للهول! كانت صورة لديدرو بريشة فان لوو، وقد أعيد تصويرها بطريقة بذيئة.

لم أفهم شيئاً.

ما إن تمكّنتُ من لانغونهيرت، حتى انتُزِع مني...

أيُلقّب ديدرو بلانغونهيرت؟ أهما الشخص نفسه؟

انحنيتُ في اتجاه الصفحة أكثر، لأركّز عليها بدقة. ثمة ورقة

ناقصة. يبدو أنها مبتورة، ويدلّ على أنها كذلك شريط ورقي صغير، يكاد يتجاوز حافة الكتاب قليلاً، شَهِد لي بأن الورقة التي من المفترض أن تتضمّن صورة غاسبار لانغونهيرت، كانت بالفعل موجودة، لكنها انتزعت. كانت صورة غاسبار منشورة إذاً، ضمن هذا المجلد!

انتصر فرحي على إحباطي. زالت شكوكي. لم يعُد يهمني على الإطلاق، أن تكون الصورة سُرقتْ، ما دام أن غاسبار لانغونهيرت، مثلما صرتُ أعرف الآن ذلك، ليس شبحاً ولا مزحة؛ لقد كان شخصية معروفة في عصره، حظيت في نهاية القرن بالتشريف اللازم لها، لأنها نشرت في **مجمع لوحات كبار القوم**. ظللتُ أنظر إلى ذلك الشريط الورقي الصغير في نوع من الحنان، بل ومررتُ أصبعي فوقه، كما لو أنه أعاد لي غاسبار حياً!

- اسمح لي بالقول أيها السيد الفاضل، بأنك تهت عن الوجود حولك، بل أكثر من ذلك: كنت تهذي، وتُخرّف!

فقفزتُ، واستدرت. كان هناك رجل طاعن في السن، بقامة طويلة ونحيفة، ينظر إليّ بتركيز. ظلّت عيناه الملونتان بزرقة غامقة تخترقانني، في حين أن أنفه المعقوف يوحي بصورة النسر. لم يكلمني بعدها، وإنما بقي ينظر إلي، سابراً أغوار فكري.

- ما الذي تقصده، يا سيدي؟

هاج الشيخ تحت وقع هذه الكلمات، فصار هيجانه مثيراً للانتباه أيضاً، بالقدر نفسه الذي كان عليه هدوءه السابق. انتزع نظارته الطبية بحركة سريعة من يده، وواصل تنفسه متنهداً، وهو ينظر إلى السماء في يأس:

- ليس لذلك المجلد أي قيمة تُذكر. إنه مزيف.

- كيف هو مزيف؟! وما الزائف فيه؟

- كل شيء يا سيدي، كل شيء! اللوحات التي استُنسِخَت صورُها غير موجودة! كما أن ثمة افتراءات كاذبة، بشأن أسماء النحّاتين! أضف إلى هذا، ذلك الصمت المريب الذي يحيط بالاسم الحقيقي للكاتب، أو الكُتّاب المسؤولين عن النشر! إن ذلك الكِتاب يا سيدي، لقفشة! إنه خدعة، وعملٌ من أعمال الكُدية!

بدا عليه السّرور، خاصة بعد استعمال هذه اللفظة الأخيرة.

- أنا أتمسك بالحقيقة يا سيدي، لأنّ لدينا هنا مثلما ترى، مبدأ نعمل عليه، وهو أن لا نكذب قط على الزبون، وأن لا نفرِّط في تقدير قيمة البضاعة كذلك.

ما من أحدٍ آخر كان يحدثني إذاً، سوى بائع الكتب بالذات. أين ذهب عقلي؟ هكذا تصدى لي التاجر بلهجة صريحة منذ البداية، حتى يلتفّ علي في ما بعد، التفافاً.

- ولكن جميع ما يتضمّنه الكتاب، غير مزيف! فالكُتّابُ الذين عُرِضَت صورهم فيه، كانوا موجودين حقاً.

لم أكن أكترث صراحة، لا لصحّة الرسومات في الكتاب، ولا لكذب الناشر، لأني خفتُ فقط، من أن يُصادر مني لانغونهيرت.

نظر إلي مندهشاً أولاً، ثم فرحاً للبلاهة الهائلة التي أبديتها، بعد ذلك. لقد اشتمّ فيّ تماماً، رائحة الطريدة الوديعة، فربّتَ على كتفي بكيفية تشي بألفةٍ، ليس فيها أثر لأي تكلف.

- بالتأكيد، لا يدور بخلد أي كان أن يتنكّر لوجود راسين، ولا كورنيي، ولا موليير. إنما رأيتُ أن حضرتك من هواة النصوص

الجميلة، وهو ما حذا بي بالضبط، إلى أن أعمل على توجيهك شطْرَ تلك المنشورات المكتملة والرائعة، التي. . .

- هذا غير مهم، قلت له بنوع من الجفاء. ما يهمني هو هذه الأضمومة بالذات.

بعد أن تصدّيْتُ له، وهو في غمرة التوثب المتحمّس، تخلّص الشيخ النصّاب من تلك المجلدات، التي كان يمدّ بها في اتجاهي.

- ثلاثمائة فرنك.

- هذا كثير. ثم إنه لمجلدٌ مبتور، إذ به ورقة ناقصة، وهي كل ما يهمني منه.

انتزع الكتاب مني بقفازيه الوسخين، وانكبّ يتفحص الموضع الذي ظهر منه العيب. سوّى نظارته ببطء فوق عينيه، ثم نطق بنوع من اللوم وتأنيب الذات:

- أنا لست مسؤولاً يا سيدي، عن أي شيء يرتبط بالتشوّه، الذي تعرّض له الكتاب. ثم إذا ما تفحّصتَ موضع البتر بعناية، فإنك سترى أنه غير واضح بالشكل اللازم؛ وهو ما يعني أن البتر وقع باستعمال شفرة حلاقة ومسطرة، وأن المجلد قد ثُبِّت إما بأثقال، أو بمِلزَمَة. ثم انظر جيداً إلى موضع البتر، لترى أن لونه قد حال، وحاشيته اصفرّت بشكل طفيف، وهو ما يعني أن البتر قديم. فهل يكون ربما، قديماً بقدم المجلد ذاته؟

كان الرجل على حق. . . موضع البتر قديم قدم المجلد!

- بالنظر إلى حالته تلك، التي كنت محقاً في لفت انتباهي إليها، سأتركه لك بمائتي فرنك.

أديتُ الثمن دون أي شكر، لأني علمتُ على كل حال، أن

ذلك هو الثمن المتوقع أن أصل إليه، حين أشاكسه فيه. وحتى أستعيد وحدتي، ابتعدت عنه بسرعة، وأنا على عجلة من أمري، بينما كنزي المبتور تحت إبطي.

هكذا إذاً، سبق لغاسبار لانغونهيرت أن وُجِد كشخص!

أنا لم أكن أتأبّط الدليلَ القاطع على وجوده وحسب، وإنما على تلك المؤامرة التي ربما ظلت تطمح إلى النيل منه، ومحو آثاره كذلك. فلِمَ وقع التكالب على صورته؟ ومن ذا الذي استطاع لانغونهيرت أن يستحوذ على شخصه، حتى بعد أن مات هو بوقت يسير؟ ثم مَن ذا الذي رغب في محو كافة تلك الآثار، التي ظلّت تدل على ذلك الرجل؟

عدتُ إلى البيت.

باغتني هبوط الليل، بينما كنت متهالكاً على مقعدي الوثير، وذراعاي تتأرجحان، وأنا منهمك في التفكير لوقت طويل، في ذلك المصير الملغز الذي لحقه النسيان. أضأتُ المصباح المركّز الذي يقع بجانبي، لأتصفّح المجلد المقتنى، فإذا بعينيّ ما انفكتا تمضيان باستمرار، من النص المعلن عن غاسبار لانغونهيرت، إلى صورة ديدرو المجاورة خطأ للإعلان، وأنا أنتظر - لست أدري ماذا؟! - أيّ معجزة قد تنجم عن هذه الحركة، التي ما تفتأ تذهب لتجيء من الصورة إلى الإعلان، ومن الإعلان إلى الصورة، وكأنما كان بمقدور تلك الحركة النوّاسة، أن تجعل الصورة المبتورة تظهر ثانية.

قفزت بغتة، واقفاً على قدمي. انتزعتُ ذلك الجزء الخاص بديدرو، الذي يضم مؤلفات شبابه، من بين المجلدات الخضراء التي صُفَّت في خزانتي، ثم انتقلت بكيفية محمومة، إلى كتاب: نزهة

المرتاب، لأعثر على النص الذي خطر ببالي، بكيفية لاواعية منذ ساعات، وهو محكي قصّ فيه ديدرو اللقاء الذي جمعه بفلاسفة من صنف غريب:

إلى جانب هؤلاء، تسير على غير هدى منهجي، ولا نظام، فطرياتٌ أكثر فرادة ممّا سبق: إنهم هؤلاء الذين ينطلق كل منهم، من قناعة راسخة لديه، تفيد أنه - وحده - الموجود في العالم. إنهم يسلِّمون بوجود كائن واحد، إلا أن هذا الكائن الذي يفكر، هو بالتحديد ذاتهم: ومثلما أن الذي يحدث في دواخلنا، ليس سوى مجموعة من الانطباعات، فإن كل شيء آخر - سواهم، وما عدا انطباعاتهم - وجوده منكورٌ لديهم؛ وهكذا، تجد أنهم العاشق والمعشوق في الآن ذاته، والوالد والمولود، والواحد والمعدود.

وقد التقيتُ في الآونة الأخيرة، بواحد من هؤلاء أكّد لي أنه فيرجيل. «ألا ما أسعدكم، فقد خلّدتم اسمكم برائعة الإنيادة!»، قلت له. «من؟ أنا؟! لست بأسعد منكم في هذا»، ردّ علي. يا لها من فكرة! قلت. فلو كنتم حقاً ذلك الشاعر اللاتيني (وهذا ما يتناسب معكم، أكثر ممّا يتناسب مع غيركم!)، لرضيتم بكونكم شخصاً يستحق التبجيل والتقدير الكبيرين، لأن فيرجيل شخص تخيّل، مثلما أبدع، عدةَ أمور كبرى. يا لنبوغه! ويا لاتساق خياله! ويا لأسلوبه! ويا لدقة أوصافه، ونظامه!». «عن أي نظام تتحدثون؟ قال مقاطعاً. ليس ثمة من أثر لذلك في المؤلف المومأ إليه، لأنه بالأحرى نسيجٌ من الأفكار، التي لا تحيل على شيء؛ فإنْ

كان لي بالأحرى، أن أهلّل للأعوام الأحد عشر، التي قضيتها في الربط بين تلك الأبيات الألف مجتمعة، فإن ذلك قد يكون لأني أجزلتُ على نفسي ثناء حسناً، لحذقي في استعباد أبناء وطني ببعض المحظورات، ولتشرُّفي بلقب أب الأمة وحاميها، بعدما كنت طاغية!».

أمام هذا الهراء كله، ما كان مني إلا أن فتحتُ عينيّ على سعتهما، بحثاً عن كيفية ما للتوفيق بين كافة تلك الأفكار المتنافرة. حينها، لاحظ صاحبي فيرجيل بأن خطابه أربكني، فاستأنف يقول: «لا شك أنكم وجدتم بعض العنت الشديد في فهم كلامي؛ لذا أقول لكم، إني كنت في الوقت نفسه فيرجيل وأوغيست، وكنت أوغيست وسينا كذلك. إلا أن هذا ليس هو كل شيء؛ أنا اليوم كل مَن أرغب في كونه، ولسوف أبرهن لكم بأني أنتم بالذات ربما، في حين أنكم لستم أي شيء، حقاً؛ فسواء صعدتُ إلى الأعلى، أو هبطت إلى الأسفل السحيق، فإني لا أخرج عن ذاتي أبداً، لأن ما من شيء موجود أبداً، عدا فكري الخاص»؛ قال لي بتشدّق، حين قاطعته فرقة صاخبة، كانت هي السبب لوحدها في كل تلك الجلبة، التي عمّت طريقنا، وغطّتْ عليه.

لم يعد بوسعي الشك، أبداً. كيف لا أتعرف في هذا الشخص على غاسبار لانغونهيرت الذي يعنيني، وفي المجموعة التي تبعته من الخلف، عن الطائفة الأنانية؟

راجعت الهوامش المثبتة أسفل الصفحة، لكن ما من أحد

اكتشف أبداً، ولمدة ثلاثة قرون متتالية من النقد والتعليق والتوشية والنشر، مَن كان يشير إليه ديدرو في هذا النص، إشارته التلميحية تلك! لقد وقع افتراض كل شيء، في نهاية المطاف: قيل إن تلك صورة لمالبرانش، وقيل إنها لبيركلي، أو هي بشكل جادّ للغاية، صورة كاريكاتيرية لكونديا‌ك، لأن العبارة القائلة: «فسواء صعدتُ إلى الأعلى، أو هبطت إلى الأسفل السحيق، فإني لا أخرج عن ذاتي أبداً، لأن ما من شيء موجود بالمرة، سوى فكري الخاص»؛ هي عبارة موجودة كذلك في كتاب: **مقالة حول أصل المعارف البشرية**. الذي نُشر سنة 1746، قبل أن يكتب ديدرو ما كتبه. إلا أني الوحيد الذي صار يعلم منذ حين، بهذا: الأصل حقاً هو غاسبار لانغونهيرت، لأن العبارة الشهيرة لكونديا‌ك كانت موجودة في المقال الذي كان فيستيل الهويلييري قد كتبه، ويُرجعها فيه مباشرة إلى لانغونهيرت. أما كونديا‌ك، مثلما هو حال ديدرو، فإنه لم يقم سوى بالاستشهاد بصاحبي، ذاك المجهول!

لقد أثبت لي ديدرو إذاً، وجوده: إن مغامرة غاسبار لانغونهيرت الخرقاء، كما طائفته الأنانية، واقعتان تاريخيتان حقيقيتان.

عندئذٍ، قررتُ ولأول مرة، أن أجمّد بحثي الأكاديمي لفترة من الوقت. إلى الجحيم كل أعمالي وأطروحتي! لقد استبدّت بي الرغبة في إرواء فضولي، فعزمتُ على تكريس البحث لغاسبار. وهذا، منذ اليوم الموالي.

ثم شُبِّه لي أني نمت، وأنا على هذه القناعة.

في اليوم الموالي، انطلقتُ مسرعاً نحو المكتبة الوطنية، منذ لحظات افتتاحها الأولى. لا أحد رآني من قبل أبداً، في مثل تلك الساعة المبكرة. سِرتُ وأنا فرح وحديث العهد بحلاقة الوجه، أهرول في اتجاه الكاتالوغات، وقد ملأني حماسٌ شبيهٌ بحماس مَن افتضّ بكارة ما، الليلة الفارطة.

سألني جيراني المعتادون ذوو الرؤوس الصلعاء، في لهف مشوب بالقلق:

- هل أشرفتَ على إنهاء الأطروحة؟

أجبتهم بطيبة أهل النفوس المسرورة والمتسامحة، أطمئنهم:

- بل هي التي ستنهيني!

اهتزت الرؤوس الصلعاء ضاحكة، لا من المزحة، لأنها من الأمور معتادة التداول في مثل هذه المناسبة، وإنما من فرط الرضا والارتياح. ثم ذهبتُ إلى حدّ القول، مضيفاً:

- إني لأحتاج إلى... عام آخر.

انكفأت الرؤوس الصلعاء على نفسها مرة أخرى، لتَغرق في قراءة طلاسمها. على العموم، كان اثنا عشر شهراً من العمل لإنهاء

الأطروحة، على امتداد عشرين عاماً، هو التقدير الذي ينتهي إليه كل باحث، في كل سنة؛ ومن ثمة، لم يكن لكلامي إذاً، أي أهمية تُذكر... ومع هذا، ينبغي أن لا يعتقد المرء بأن الوسط العلمي خالٍ من الرحمة! إن الباحث في العرف المتداول، هو حيوان قادر على عقد الألفة مع غيره، وهي ألفة قد تتكشّف أحياناً، في شكل رفقة طيبة... لكن ما يحبه الباحث في الآخر، ليس هو عنصر الفرادة الخاص، ولكن اقتسام الوضعية المشتركة بينهما فحسب: أي مدة الأسْر. إن الباحثين ليحملون في قرارة ذواتهم، صداقة الأسر التي لا مكان فيها للكراهية، إلا إزاء ذلك الأسير الذي سيتحرّر من وضعيته، عما قريب. وبما أني طمأنتهم عن وضعي، فقد أخذوا فرحي على سبيل اضطراب هضمي عابر، سرعان ما نسوه.

ولأن غاسبار لانغونهيرت لم يكن حلماً، وإنما شخصاً ظلّ منسياً، فقد لزمني - منطقياً - أن أعثر على بعض ما يشهد على وجوده، في كتابات معاصريه؛ لذا، صممتُ على البحث بمنهجية مرتبة في الصحف، والمتابعات الإخبارية، والدوريات، والتقويمات الفلكية، والمجلات الأدبية التي عاصرته. لقد أردتُ أن أعثر ولو على تلك الأصول، التي استقى منها فيستيل الويلييري أخباره، على الأقل.

استغرقت مني أعمال البحث والتنقيب، أسبوعاً كاملاً، انتهيتُ في الأخير إلى اكتشاف وثيقتين، ليس لهما الأهمية نفسها ولا الطول نفسه، غير أنهما أفادتاني كثيراً، في أمر غاسبار لانغونهيرت، من حيث إنهما بتأكيدهما على حقيقة وجوده، انتَزَعتا عني الشكوك.

ثمة في البدء، تلك الطرائف الصالونية التي جمّعها أحد

المهتمين بمتابعة الحياة الأدبية في الصالونات الباريسية، وهو المدعو هيبير دو سانت إنبيه، ذو الذكاء المسطّح، الذي يَحُلّ الشرُّ عنده محلَّ العقل، إلا أن متعة الاغتياب جعلته شديد الانتباه للآخرين. ففي خانة «المساءات» التي ضمّنها حوليته: **السنة الأدبية 1723/ 1724**، علّق من بين أشياء أخرى، على حلول غاسبار لانغونهيرت بصالون مدام دو دوفان الأدبي، تعليقاً يتضمن القليل من الفلسفة، والكثير من الغلّ. لقد كان ما كتبه مضحكاً وطريفاً وسخيفاً في الآن، إلا أنه كان قد كتبه مع ذلك، بكيفية رائعة.

أما النص الثاني، وهو الأطول والأهم، فهو مقتبس من مجلد بعنوان: **فلسفات فرنسا وإنجلترا**، ويعرضُ لأهمّ المذاهب الفلسفية الشهيرة، في وقته. وقد أدرج فيه المؤلف، وهو غيوم أمفري الغريكوري، فصلاً بعنوان: «الأنانية، أو فلسفة السيد دو لانغونهيرت»، وفيه يعرّف في نوع من الاستفاضة والتوسيع، بالمبادئ الأساسية في أطروحة الطائفة الأنانية، متخذاً لذلك شكل حوار يجري بين كليانث (المحاوِر)، وأوتومونوفيل (لانغونهيرت). ومن الواضح أن هذين النصين، هما العمدة التي اعتمدها فيستيل الهويلييري، أصلاً لمقاله المذكور.

يعرض هيبير دو سانت إينبيه، المخلص والوفي لصالون مدام دو دوفان الأدبي، لتلك الشهور الأولى التي وفد أثناءها غاسبار لانغونهيرت على باريس، كالآتي:

حلّ بيننا فيلسوفٌ شاب، وفد علينا من بلاد هولندا.
وما شفع له بأن يُقبل بيننا، هو حسنُ هيئته، إذ كان شاباً في
غاية الجمال؛ وفي الوقت الذي أكسبه جمال المحيا قلوبَ

النساء، نال بفضل صمته الوقور، تقديرَ الرجال كذلك. إلا أن الناس ظلتْ تسخر مع ذلك، من تعاطيه للكتابة - إذ ماذا ينبغي على المرء أن يصنعه، إلى جانب كونه في العشرين، ويملك خمسين ألف ليرة دخلاً، ولا أسرة له، ويحظى بوطن آمن؟! - وكان يُنسبُ إليه ذكاء أقل درجة من قدرته على غزو القلوب، وكان هذا الأمر كفيلاً لوحده بأن يضمن له، مساراً نبيلاً غاية في الإشراق.

وهكذا ظل لشهور إذاً، لا ينبس ببنت شفة، ولا يردّد غير تحيات مبتذلة ومتداولة، وهي حالة التزم بها الجميع هنا، بشكل كبير؛ إلا أنه ما لبث ذات مساء، أن انتصب واقفاً وسط الصالون، وكسّر الصمت المطبق، وراح يردّد بأعلى وأوضح صوت:

- ليس لي جسم... جسمي ليس مادة.

أصيب الجمع بالدهشة والذهول. حملقت فيه النساء بشدة، وكأنما ليقِسْن عدم اتساق كلامه. بعضهنّ ضحك، وبعضهن الآخر احمرّ وجهه، لأنهن إن لم يكنّ قد صدّقن آذانهن، فإنهن لا يزلن في الأقل، يجدن متعة دائمة في تصديق أعينهن.

بدا السيد لانغونهيرت مقتنعاً كل الاقتناع بالاكتشاف الذي صدع به، إلى حدّ أنه عوض أن يحتاج إلى مواصلة الحديث، بقي هناك في مكانه ساكناً، ووحيداً. أمسك البارون شفارتز بذراعه، وقال له ببساطة:

- ومع ذلك أيها الشاب، ثقوا بأن النساء كلهنّ

متفقات، على التعرّف فيكم على جسم، بل وعلى جسم غير قبيح بالكل، إن أنا صدقْتُ الشائعات.

احتجّت ممثلات الجنس اللطيف، احتجاجاً شكلياً.

- أنتم تداهنوني، يا سيدي، قال الشاب في انحناءة. لكن عليكم أن تؤمنوا، بأن ما من شيء قادر على انتزاع هذه الفكرة من ذهني، والتي أشبعتها تقليباً وتمحيصاً.

دَنَتْ منه مدام دو دوفان، لتختبره.

- أنِرْ عقولنا إذاً، أيها الصديق. أنرْ لنا هذه الأعماق التي تبدو طوع اليد. لماذا تتمسكون إذاً، بكون جسدكم ليس من مادة؟ أتراكم من قبيل هذه الأشباح، التي تستحضرها بارونة السانت جيليز، فوق المنضدات الصغيرة؟

- على الإطلاق، يا سيدتي. ليس الأمر ضرباً من الجنون، ولا من الحيلة الخادعة، وإنما هو - بحق - خلاصة فلسفية، قادني إليها التأمل.

ثم والى جوابه بعد ذلك، بهراء تمّت فيه البرهنة عن طريق «أ» و«ب»، بأن الطبيعة غير موجودة إلا في ذهن فيلسوفنا، وبأن الأصوات والروائح والمواد والألوان والأذواق، لا وجود لها سوى في عقله، وبأنّا - نحن أنفسنا - غير موجودين، إلا في ذهنه. وقد خلصتُ من ذلك، إن كان ينبغي لي تصديقه في ما زعم، إلى أنّ من الطبيعي أن أشياء كثيرة كانت، وهي مجتمعة في فضاء صغير جداً، قد صيّرته مجنوناً.

كل أصحاب العقول المسطحة، عشاق الأعماق المجهولة، صفقوا بحرارة. وكذلك حصل مع الأغبياء أيضاً، لأن هؤلاء لم يكونوا قد استوعبوا أي شيء مما قيل، ومع ذلك فإنهم صفقوا كعادتهم، لتلك الكيفية التي تجلّى لهم فيها، الذكاء الألمعي. أما الحكماء فقد التزموا الصمت، لأن الحكمة تنصّ على أن لا يناقش المرء ما قد يتلفظ به بعضهم، في غير مجال البحث عن الحقيقة، وإنما رغبة في مخالفة السائد.

بعد ذلك بيومين، ما عاد أي أحد يأبَه لما كان ذلك الشاب قد روَّجه في المجلس، إلا أن الناس احتفظت في ذهنها بأنه قال ما قاله، بكيفية جيدة. ومنذ ذلك الحين، اعتُبِر عقلاً ألمعياً، وهو ما يعني أن له الحق في قول أي شيء رغب فيه، دون أي اعتبار للعواقب.

ولأن هيبير دو سانت إنييه ظل مشغولاً بالاغتياب والنميمة، أكثر مما كان يكترث للفهم والإفهام، فإنه لم يكشف لنا - بداهة - عن المنطق، الذي اعتمده غاسبار في بناء أطروحته. ومع ذلك، فإني وجدتُ شيئاً من هذا، كان غيوم أمفري الغريكوري أثبته، في بداية محاورته البيداغوجية.

كليانث: يدور لغط كبير حول أطروحتكم. فقد ادَّعيتم مثلما يبدو، أنكم بلا جسم. لكن - وأرجو أن تسكّنوا من روعي - بأي جريحة تلفَّظتم بتلك الأطروحة، التي روجتم لها؟ أليس بفمكم؟

أوتومونوفيل: إن سارتْ المحاورة على هذه الكيفية، فإني أفضل التخلي عنها، حالاً.

كليانث: ألتمس عفوكم، إذ لم أقاوم الرغبة في التحدث إليكم، بتلك الكيفية.

أوتومونوفيل: ينبغي - كي تفهموني جيداً - أن أعرض عليكم في البداية، نظريتي بشأن المادة، لأن كل شيء قائم عليها، ويترتب عنها.

كليانث: وما قولكم في المادة، إذاً؟

أوتومونوفيل: بأنها غير موجودة.

كليانث: ماذا؟ أتنوون التخلص منها، بمثل هذا الهذر؟

أوتومونوفيل: أجيبوني: متى تجدون أنكم محقّون في القول بأن «هذا شيء موجود»؟

كليانث: حين أراه، وأدركه.

أوتومونوفيل: ذلك بالضبط، ما يحلو لي الموافقة عليه. إن الشيء الموجود هو الشيء الذي إما أراه، أو ألمسه، أو أسمعه، أو هو ما أذكر أني رأيته، أو لمسته، أو سمعته؛ لا غير. ومن ثمة، فإن ما نسميه العالم، إنما هو جُمّاع أحاسيسنا. إنّنا لا ندرك العالم من تلقاء ذاته، وفي ذاته، وإنما لكلٍّ منّا عالمه المحسوس.

كليانث: أتودّون القول بأن ما من أحدٍ يشعر بالعالم نفسه؟ وأن لكلٍّ منّا عالماً مختلفاً؟

أوتومونوفيل: بالضبط. إذ هل نحن نرى بالطريقة نفسها؟ وهل نحن نحس بالطريقة نفسها؟ إن لهذا لساناً

ذوّاقاً، ولذاك أنفاً جُبِل على استنشاق الرائحة الذكية في الخصوص، وللآخر حساسية رهيفة مركوزة في رؤوس أصابعه، ولتلك قدرة على سماع عطس الذباب.

كليانث: هذا صحيح.

أوتومونوفيل: هناك إذاً، عوالم متعدّدة بتعدد الأفراد أنفسهم.

كليانث: أنا متفق معكم.

أوتومونوفيل: إن اللغة إذاً، هي السبب في انزياحنا عن هذه الحقيقة. إنّنا نتكلم بعفوية، عن عالم واحد، في الوقت الذي يوجد فيه عدة عوالم. إن جَذْبَ اللغة، الضروري مع ذلك في التواصل، هو ما يجبرنا على الخلط بين الكلمة والشيء، فنأخذ الأولى مأخذ الثاني.

كليانث: نحن، إن كنتُ فهمت كلامكم جيداً، نعتقد بأن هناك عالماً واحداً، في حين أن ثمة آلاف العوالم.

أوتومونوفيل: أجل، لأن العالم لا يوجد إلا في رؤوسنا.

كليانث: أنا أتابع بتركيز شديد، ما تذهبون إليه.

أوتومونوفيل: حينها، يكون بمستطاعكم أن تستنتجوا معي، بأن لا وجود للمادة، ما دام الكل موجوداً في أذهاننا. لا شيء مادي، وإنما كل شيء - في ذاته - ذهني. وعليه، ليست الطبيعة سوى النثر الذي تخلقه أحاسيسي. وسواء أأسميتُم المحسوسَ مادة، فإنكم تحتفظون في ذلك بالواقع، وتظفرون بالتماسك والاتساق. أنا لا أنفي وجود الأجسام

ذات الحيز، ولا وجود الروائح، ولا الألوان، ولا الأذواق، كما لا أنفي وجود ما هو خشن، وأملس صقيل، ووسخ، وإنما أرفض فقط، فرضية وجود مادة ما، أي ذلك النوع مما يعدّ خلفية العالم المستقلة عن الأنماط النوعية للإدراك. ليس العالم حقاً، سوى ما هو محسوس، ولا يقوى المرء بالمرة، على الانفلات من هذه الحقيقة.

تبيّن لي بعد قراءة هذه المبرهنة - التي لم تكن لتوجد، لولا رجعُ صدى **المحاورات الثلاث** لبيركلي - بأن غاسبار لانغونهيرت لم يكن مجرد فيلسوف من صنف الخطباء، وإنما حرص على إخضاع برهنته إلى تماسك علمي حقيقي. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن هيبير دو سانت إنييه، الذي تناول الأشياء وفق مستواه، أي بمناقشة أدنى بكثير من الطرح الفلسفي، استطاع بخصوص مسألة الجسم اللامادي المشار إليها آنفاً عند لانغونهيرت، أن يمدّنا بطريفتين اثنتين مشبعتين بدلالة إيحائية، نوردهما في هذا المقام.

بعد حدوث تلك الواقعة بوقت، أعاد غاسبار لانغونهيرت تقديم نظريته مرة أخرى، في صالون الكونتيسة ديفيرمونت، ليستثير بذلك غضب البريسيدان كاريير، الذي سبق أن استمع لذلك الشاب من قبل، في صالون مدام دو دوفان. ولأن البريسيدان قلّما حظي بملاطفة نسائية، فيها بعض المجاملة بسبب مظهره العام، رغم أن همّة الإغواء ما كانت لتعوزه مع ذلك، وهو الشيء الذي ظلّ يدفع به إلى الإقدام على استعراضات غرامية تفوق بكثير إمكاناته الذاتية

الخاصة؛ فإنه لم يكن ينظر إلا بعين الكراهية، لقدوم كل شاب جديد قد يفِدُ على الوسط، الذي يكون موجوداً به، لأن ذلك المغرور - رغم كونه يبدو بالنسبة إلى ذلك الشاب، في عمر الوالد وبمظهر الجَدِّ! - فإنه سرعان ما يرى فيه، غريماً. زدْ على ذلك أنه لم يكن على الإطلاق، ينظر بعين الرضا إلى السيد لانغونهيرت بشكل خاص، بل كان يكرهه كرهاً كلياً، خاصة حين تراءى لهذا أنه يتعاطى للتفكير الفلسفي في المجالس العامة، لأن حظ البريسيدان في ما يتعلق بالمحاورة - وعلينا أن نقول ذلك صراحة، وبغير مواربة - أقل من حظّه في الإغراء. وهكذا إذاً، التفت صاحبنا نحو الفيلسوف، وصاح في أذنه:

- ما هذا الذي بلغني، يا سيدي؟ يبدو أنكم لا تملكون - إن أنا استوعبت حقاً - أي جسم مادي بالكل؟!

- ذلك بالضبط، هو فحوى كلامي، يا سيدي. لقد استوعبتم جيداً، ما قلته.

- جيد، جيد. وأنا؟ هل لي في نظركم، جسم مادي أم غير مادي؟

- غير مادي، بالطبع. أنتم - بالنظر المنطقي - لا تختلفون عني.

هذه الدعوة إلى النظر المنطقي، انتهت إلى استثارة حنق البريسيدان. بدا أنه تمالك زمام أمره، غير أنه وبعدما رمى الحضور بنظرة متواطئة، استأنف متحدثاً مع السيد دو لانغونهيرت، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة، جعلته

يبدو وكأنما هو قناص يتسلى بإعطاء الطريدة، التي سوف يصطادها برمية قاتلة في كل الأحوال، لحظة استراحة.

- هكذا، إذاً، أنا غير مادي!... وما السبب في هذا، من فضلكم؟

- هو أن كل شيء، مثلما قلتُ من قبل يا سيدي، ليس سوى مجرد صورة، وأن لا وجود لأي شيء خلف الصورة. إن ما نعتقده مادة، ليس في الواقع غير إحساس.

- بالطبع، بالطبع، ردّد البريسيدان الداهية. لكن، أما من حجّة فلسفية دامغة، استطاعت انتزاع هذه الحقيقة الراسخة من ذهنكم، أبداً؟

- ولا واحدة، على الإطلاق.

- في هذه الحالة إذاً، اسمحوا لي بأن أقدّم لكم، ومن فيلسوف إلى غريمه الفيلسوف، هذه...

ثم باغته بركلة قوية. صرخ الفيلسوف على إثرها من الألم. وإذا بالمجلس ينفجر بضحك لم يراعِ اللياقة بالكل، وقد تهلل لذلك المقلب الذي لعبه رجحان العقل هنا، على حساب الميتافيزيقا.

لم يبدُ على السيد دو لانغونهيرت، حتى وهو يحكّ المنطقة التي نزلت عليها حجة الخصم الدامغة، أنه اكترث لهذا البرهان. ثم عاد البريسيدان من جديد، يحاوره:

- هل كانت حجتي في المستوى المطلوب؟ أتكفّلت قوتها بخلخلة قناعتكم؟

- على الإطلاق. ثم إنها لَمِن أردئ الفلسفات يا سيدي، بل وحتى من أفظّها، وأبذئها.

- حسناً، سأُشْعِر إشْكافي بهذا الأمر. أنا رهن الخدمة، يا سيدي.

ومنذ ذلك الحين، بات البريسيدان كاريير، الذي أسرف في الابتهاج لنجاح مقلبه أمام الحضور، يترصّد الليالي التي قد يظهر فيها الفيلسوف إما في هذا المجلس أو ذاك، كي يضع نفسه ببشاشة كبرى، رهن إشارة الشاب، ولإعمال النظر الفكري في شؤون الفلسفة إلى جانبه، وإعادة إنزال الحجة الدامغة على جسمه.

إلا أن الحكاية لم تنتهِ هنا، وإنما يُروى أن الكونتيسة دوفينيوليس، التي اشتهرت بين الناس بقوامها الجميل، ورقّة أخلاقها، اقترحت نفسها بعد أن تناهى إلى سمعها، ما دار بين دو لانغونهيرت والبريسيدان كاريير؛ وذلك كي تقنع الفيلسوف الشاب بكونه يمتلك جسداً مادياً، عبر طريقة من الطرق البرهانية، التي تعودت عليها، والتي لا أنداد لها فيها، بحسب ما قيل. لذلك، ابتدرته، وصدّتْه، وجعلته يأمل فيها، وبعدها ذوبته، وابتسمت له، ثم قاطعته، إلى حدّ أن الفيلسوف، وبعد أن مضت أيام قليلة على هذه المناورات، اتجه رأساً ودون تفكير، نحو حصة التفلسف، التي دعته إليها الكونتيسة، في الصالون الخاص بالنساء.

أقيم البرهان، وتجدَّد، بل وظلّ يتجدد أيضاً وأيضاً. وعوض الممانعة في التصدي لأطروحتها، وجدتْ هي لدى

مَن كادت تعتقد أنه خصمها، مؤازرة مدهشة بشكل كبير، وقواعد تتسم بالقوة والتماسك، إلى الحدّ الذي انقلبتْ فيه هي على نفسها.

سألت عشيقها، وهي خجولة ومرتجفة، كيف استطاع دون جسد، أن يربك جسدها إلى ذلك الحد، وكيف استطاع وهو من غير مادة، أن يلهب جسدها إلى تلك الدرجة! وهنا، انبرى هو يشرح لها باختصار، أن كل الأشياء إنْ هي إلا أحاسيس ومشاعر، فظفر بها على إثر ذلك، لتكون واحدة ممّن يؤمن بفلسفته. ومنذ ذلك الحين، شوهدت المتأنقة الباريسية الكبرى، تقرّ بأنها بلا جسم مادي، وتلك لطخة كان ينبغي على الكونتيسة أن تجنِّبها لسمعتها الخاصة؛ فهزّت الأكتاف، وسُمِعَت الهمسات، وهي تردد أن الكونتيسة صارت منذ ذلك الحين، برأس مغطس - أيضاً - في الماء الساخن.

كذلك كانت المكاسب النظرية في ما يبدو، خلال السنة الأولى التي قضاها لانغونهيرت في باريس. إذ لو أنّا تتبّعنا الأخبار التي أوردها دو سانت إنييه، للاحظنا بأن أطروحات غاسبار ظلت تقوم في الأساس، على الإدراك. إنه لم يدفع بنظريته قدماً إلى الأمام، إلا في السنة الثانية من إقامته بباريس، حين نَظَّر للأنانية بشكل فلسفي كامل، من خلال قوله: «أنا لذاتي هو خالق العالم».

كليانث: لكنْ إنْ لم تكن الأحاسيس بصمة تنطبع عليها الأشياء الخارجية، فماذا تكون، إذاً؟ وما أصلها؟

أوتومونوفيل: أنا.

كليانث: كيف؟!

أوتومونوفيل: أنا. أنتم لا تصدقون أذنكم بشأن هذا الأمر، ومع ذلك فقد سمعتموني جيداً. أنا لذاتي هو أصل مشاعري وأحاسيسي.

كليانث: أنتم؟ أنتم خالقو العالم؟

أوتومونوفيل: أنا بالذات. إن هذا العالم المتكوّن من الألوان، والأشياء، والروائح، أنا هو خالقه.

كليانث: الوداع، أيها الصاحب. إن الحوار ما استغرق بيننا غير وقت قصير، فكيف بالله أمكنكم القول، بأن ذهنكم هو الذي ينتج أحاسيسه ومشاعره، لذاته ومن أجلها؟

أوتومونوفيل: حين تحلمون بالليل، ألا تكونوا أنتم من يخلق الحلم، الذي يراه؟ وحين يتراءى لكم أثناء النوم، أنكم منخرطون في رحلة بحرية صوب أميركا، ألا تكون الأمواج خلقاً خيالياً، وليس من صنع شيء آخر؟

كليانث: بطبيعة الحال، ما دام الأمر يتعلق بحلم.

أوتومونوفيل: وما الذي يُشعركم بذلك؟

كليانث: اليقظة.

أوتومونوفيل: وماذا ستقولون إن استفقتم من نوم الحياة؟

كليانث: هيا، كفّ عن هذا!...

أوتومونوفيل: ومن الذي يضمن لكم أنكم لستم تحلمون، الآن؟

كليانث: لقد أربكتموني. . .

أوتومونوفيل: ما دمتم قد شاطرتموني الرأي، ووافقتم على أن لا وجود للمادة، فإن أصل المشاعر والأحاسيس لا يمكنه أن يكون إلا في الذهن. أفلا نكون حين نحلم ونتخيل، خالقين لواقع جديد؟! هنا، الأمر يتعلق بعملية خلق واعية. والحال، أننا في أغلب الأوقات، لا نخلق إلا بكيفية لاواعية!

وهكذا ذهب غاسبار لانغونهيرت، على عكس التقليد الفلسفي كله، الذي ظل سائداً في تلك المرحلة، إلى حدّ الصدور عن فرضية وجود لاوعي ما، وأنه بالأحرى لاوعي أساسي. ولإيضاح هذه النقطة بالضبط، كنتُ قد اكتشفت طريفة من الطرائف، ضمن ما دوّنه دو سانت إينييه، من الكلام المسهب:

خلال حفل البال المُقنّع الأخير، الذي أقامته بارونة دو سانت جيليز، كان إله الحبّ كيبيدان حاضراً، لأن القلوب وهي في حِمى أقنعة الذئاب، والأردية المُتنكّرة، والعتمة المتواطئة مع الممثلين، تكون أجرأ على البوح بحقائقها الخفية، فيسمح قناع الكرنفال في الأغلب، بإسقاط إما قناع الشرف، أو النفاق. ولم تكن جميع حكايات الحب، التي حمتها سيليني ذلك المساء بالضبط معروفَة، إلا أن ذلك المقلب الذي سقط ضحيته فيلسوف زمننا، السيد دو لانغونهيرت، سرعان ما عُرف لدى الجميع، وهذا ما أسعد القلب.

لقد حرصَ عدةُ أشخاص من علية القوم، كانت ثرثرة الفيلسوف الشاب الخرقاء قد ضايقتهم، على أن يثبتوا له أنه ليس هو خالق العالم، وإنما بمقدور العالم أن يحتال عليه في بعض الأحيان، عكس ما يدّعيه، وأن يسقطه في أحابيل مقالب شنعاء. لذا، طُلِب من بارون الأنتريف الشاب، الذي جعلته سنواته السابعة عشرة قادراً على أن يتحمّل كل المُزَح، بأن يرتدي الزي الذي كان من المفترض أن ترتديه كونتيسة كورونا، عشيقة الفيلسوف الرسمية. ولهذا، كان عليه أن يلعب أثناء الحفل دور العشيقة، ثم يكشف في اللحظة التي يتورط فيها الفيلسوف ورطة حقيقية، عن هويته.

وخلال الحفل، دَنَت الكونيتسة المزيّفة (البارون الشاب الحقيقي) من الفيلسوف، لتضرب له موعداً معها في الحادية عشرة تماماً، تحت أشجار الشرم البتولي، في عمق الحديقة. وفي الساعة المحددة، حضر الشاب متخفياً في زيّه المتنكّر، لكنه ما إن شرع في تمثيل دوره، حتى ارتمى فوقه الفيلسوف، وأخذ يدحرجه على أديم الأيكة، وهو الذي عُرف عنه - بفعل ما أفشته النساء من أسرار، ووفق المقتضيات الضرورية لمذهبه - بأنه أقلّ اكتراثاً بالملاطفات التمهيدية الأولية.

استعاد البارون قوته، وانتزع القناع عن وجهه، ثم صرخ في وجه الفيلسوف، وقد تحرر من قبضته:

- انظر أيها الفيلسوف إلى المرأة التي تعشقها. فهل هذا حقاً، هو ما كنت تريده، يا من يرغب في كل شيء؟!

بقي الفيلسوف صامتاً لبرهة، وقد تبلبل ذهنه، وتحيّر منه العقل، وأخذ يحملق في فم البارون الشاب الندي، وفي عينيه، وشعره الأسود ذي الخصلات الطويلة، ثم ما لبث أن أمسك بيديه في رقة، بعد ذلك.

- من دون شك، أنت مَن رغبت فيه، قال. قد أكون رغبتُ فيك دون وعي بذلك، فأدركت هذا أثناء هذه المغامرة.

ثم استأنف مع البارون الشاب الحقيقي، ما كان قد بدأه مع الكونتيسة المزيّفة. صار الخادع مخدوعاً حقاً، غير أنه لم يشْكُ من ذلك، لأنه كان فاسقاً يتفوّق فجوره على كل حشمة، إذ هو لم يقبَل بارتداء ذلك الزّي المقنع، مجاناً. وفي تلك الليلة، كان على القمر أن يؤذي مرح المشتري وغانيميد، ويصيب لهوهما في مقتل. فجرى الحوار - مثلما بدا - حول الميثولوجيا، وقيل إن السيد دو لانغونهيرت كان قد كشف عن نباهة، وعن معرفة، وعن فضول علمي، بقدر ما كان يملكه بارون الأنتريف، التي كانت دراسته جدّ متقدمة، مع ذلك. وفي النهاية، ودّع كل منهما الآخر، وقد وقعا تحت فتنة حديثهما المشترك، متواعدين بهذه المناسبة، بأن يراجعا إحاطتهما الواسعة باللغة اللاتينية.

ونكاية بالساخرين، كان السيد دو لانغونهيرت نفسه، هو من كشف لعشيقته الحادثة، مُقرّاً أنه ابتهج لكون هؤلاء قد دبروا له تلك المفاجأة السارة. وهكذا، رُدَّ الساخرون على أعقابهم كاسفين مرة أخرى، لأن من المؤكد أن ما من شيء استطاع اختراق نظام الفيلسوف الأناني، بالمرة.

كانت الطريقة واضحة. وهكذا كلما أشعر العالَمُ غاسبار بشيء ما، إلا وكان هو يظنّ على الدوام، أنه أمام شيء تشعره به ذاته. إن الجانب المجهول في كل أمر، يصدر عنه هو بالذات، ولا يصدر عن الخارج أبداً، ما دام أن هذا الأخير غير موجود. إنه لنظام معرفي دفاعي حقيقي، ولذرع مفاهيمي وقائي، سمح له وفق هذه الكيفية، بأن ينتبه إلى أدنى واقعة ممكنة، وأن يقلب الاعتراض الأشد قوةً، على أعقابه.

كليانث: لكن، إنْ كان هذا العالم قد فُطِرَ وفق رغبتكم، فكيف تفسرون إذاً، وجود الألم؟ إني لأرى في هذا، حجة هادمة لنظامكم الفكري.

أوتومونوفيل: الألم؟ إنكم لتلمسون بهذا، واحداً من مخلوقاتي الصغيرة التي أعتزّ بها، ولا أكفّ عن تأمل نفسي من خلالها. إن الألم ببساطة، هو ذلك السؤال الذي أطرحه على نفسي، أنا بالذات، لقياس قوة الرغبة عندي: وإذا ما صدّتني المعاناة، فإن هذا يعني في العمق، أني غير متمسّك بالشيء الذي أرغب فيه، وأشتهيه أبداً. لكن إذا ما تكشّفت المعاناة عن عائق ما، فإن ذلك يعني أن رغبتي قوية، وعميقة. إن الألم هو بشكل من الأشكال، آلة قياس الضغط الناجم عن ميولاتي ورغباتي. إنه لأمر بارع! أليس كذلك؟

كليانث: بالتأكيد. ولو أني أخاف أن تؤخذ البراعة، مأخذ الحقيقة.

هنا، انتهى الحوار بين الرجلين. ما من شيء إضافي آخر،

وجدته لدى سانت إنييه، اللهم بعض الطرائف التي تجسّد اللافهم العام، الذي أثاره الفيلسوف بين معاصريه. . .

نظرتْ مدام دو دوفان صوب الفيلسوف، وهي مهووسة بفعل ما استثارته فيها، دورة بوكِر كانت لحظتئذٍ، قد شرعت تفوز فيها، وكان هو هاجعاً على مقعد بالجوار؛ فرشقته قائلة، وهي تتظاهر بالقلق:

- لا تنخرطوا في النوم، قبل أن أتمّ لعبتي، وإلاّ فإنكم قد تتسببون في زوال كل شيء، من حولكم!

ضحك الفيلسوف أيضاً.

لقد صار جنونه في المحصلة النهائية، أمراً غريباً ومفارقاً. إذ هو في الوقت الذي كان يعتقد فيه أنه وحيد في هذا العالم، ظلّ في الآن نفسه يكشف عن تعطّش كبير للنقاش، ولا يغضب من أي انتقاد بالمرة؛ بل بدا للناس، أنه إنما كان يبحث عمّن يخالفه الرأي، فيهبّ إلى استقباله بنوع من الفرح الفضولي الغامر. وحين يُواجَه بحجة قوية، من شأنها تقويض دعائم نظامه الفكري، فإنه يضحك منها في استمتاع، بل ويذهب حدّ القول:

- إني لم أكن حقاً، قد فكرت في هذا من قبل، أبداً!. . .

وكان من النادر أن يجيب فوراً، عن الاعتراضات التي توجَّه إليه. إذ دأب على إمساك المحاور من ذراعه، بعد أن يكون قد مضى أسبوع على تركه دون جواب، غير مكترث

لأي تقديم كيفما كان، ثم ينبري إلى استئناف الحديث معه، من حيث انصرم حبله قبل أسبوع.

وبما أن مدام دو دوفان قد اندهشت لهذا السلوك الشاذّ، فإنها استفسرته عن علة ذلك، فما كان منه إلا أن أجابها بأنه غير ملزم أبداً، بأن يشهد لمحاوريه بأي فضل خاص بهم، لأنه إن كان يحاور هؤلاء، فإنما كان في الواقع، يحاور نفسه.

- ماذا؟ ردّت عليه مدام دو دوفان، وهي مندهشة. أما تزالون تعتقدون، حتى حين أعترض عليكم برأي مخالف، أنكم خالقو هذا العالم؟ وإلا لمَ تعنون أنفسكم إذاً، بالرّد علي؟

- لكني يا سيدتي العزيزة، لا أتحدث حينها، إلا مع ذاتي. لقد خلقت صالونكم هذا، لأني أعمل فيه بكيفية أفضل ممّا أعمل في مكتبي، حيث يراودني النوم، خاصة في فترات ما بعد الأكل. بينما هنا، فإن الحركة وتنوع الوجوه والخطابات، يجعلان من الأوقات التي أقضيها في هذا الصالون، أوقات مفيدة ومثمرة للغاية.

بدا أن الناس صارت بالتدريج، أقل احتفاء وترحيباً به بينها. لقد كانت المرحلة حقاً، تقبل من المرء قول أي شيء يودّ قوله، وهذا بالضبط هو تعريف معنى «الصالون الأدبي»، إلا أنها لم تكن لتتقبل بسهولة، أن يتصرف معها كيفما اتّفق. والحاصل، أن الفضول قد تقلص.

لم يفدني ما تبقى من الطرائف الأخرى، التي دبّجها قلم دو سانت إنييه، أي إفادة كبرى بشأن غاسبار، اللهم التهافت السريع لنفوذه: إذ بعدما تمّ القبول به، وتُحُمِّل تحمّلاً، انتهى من تلقاء نفسه، إلى الانسحاب. لقد كانت التجربة الباريسية فاشلة. سرعان ما اختفى على إثرها، من ذاكرة رواد الصالونات.

عند هذا الحدّ، انتهت بي الوثائق التي اكتشفتها، في الأسبوع الأول من البحث.

شغلتُ نفسي يوم الأحد، بكتابة رسائل لأكبر المكتبات الأوروبية الموجودة في لندن، وروما، وميلانو، وبيزي، وميونيخ، وبرلين، ومدريد، وبودابيست، وموسكو، ولينينغراد... كما بعثت كذلك، ببعض الرسائل القصيرة إلى كافة المجلات التي تُعنى بالفلسفة والتاريخ، وأخرى إلى جمعيات علمية، كي أحصل على بعض المعلومات المتعلقة بغاسبار لانغونهيرت.

مضى شهران، على ذلك الحادث. ظلت الأيام تتقلص، ومعها ظلّ مزاجي يتعكّر. بحثتُ، لكن دون جدوى. وكنتُ في كل يوم، أظنّني أدنو من الفرضية المضيئة، التي من شأنها أن تُنير بحثي في اتجاه حلّ ما، إلا أني ما ألبثُ أن أنتهي إلى الفشل، الفشل نفسه كل يوم. وهكذا، إلى أن بلغ بي الأمر مبلغاً عظيماً، شعرتُ معه بكراهية تامة، للأمكنة التي ظللتُ أتواجد فيها: كرهتُ هذه القاعة المخصَّصة للعمل، وتلك الدهاليز المشتملة على الجذاذات، وذلك المطعم ذي الدخان الكثيف.

وصارت شقتي يوماً بعد يوم، قذرة أكثر. إذ إن مدام روزا (هل هذا هو اسمها، بالفعل؟)، أو تلك المرأة الثخينة على الأقل، التي كانت تأتي بين الفينة والأخرى لتنظّف زجاج النوافذ، وتجمع ملابسي، وتنفض الغبار عن البُسُط؛ لم تعد تصعد إلى شقتي. فهل عادت إلى موطنها - أهو البرتغال أم إسبانيا؟ - أم أن عزمها هو الذي وهن، وحسب؟ حين انتبهت أخيراً إلى هذا، لم أستبدلها بهذه ولا بتلك، ولا حتى نهضت أنا بالذات بتلك الأعباء، وإنما قرّرت عدم الاكتراث لما قد يسميه بعضهم بالفوضى، إطلاقاً. ثم مَن ذا الذي يدخل - في جميع الأحوال - إلى شقتي، من دوني؟

لم يحمل لي معه كل ذلك الكمّ الهائل من الرسائل التي بعثت

بها، أي جواب مهم. لا شيء وَرَدَ عليّ من الأشخاص، ولا من الجمعيات العلمية المتخصصة؛ بينما المكتبات هي الوحيدة التي تجشمت أعباء الردّ علي، لتشعرني أنها لا تملك بتاتاً، كتاب غاسبار لانغونهيرت الذي يحمل عنوان: **مقالة في الميتافيزيقا الجديدة**.

وهكذا، كان على الصدفة أن تتدخل مرة أخرى، كي تحدّد مساري...

إذ بينما كنت في إحدى الظهيرات، على وشك أن أغفو، بسبب التهامي المفرط للحم العجل البورغيني، إذا بي ألمح وأنا بين الغفوة واليقظة، صاحب رأس صلعاء يقلّب بالقرب مني، صفحات مجلد ساورني الاعتقاد أني قرأت فيها لفظة: «الأنانية». وللحظة غير يسيرة، استبدّ بي شك رهيب، أن أكون رأيت حقاً، ما شُبّه لي أني رأيته. لكن، ما إن نهض ذو الرأس الصلعاء من مكانه، وترك الكتاب مفتوحاً فوق الطاولة، حتى انحنيتُ عليه أتفحّص فيه، كي أتأكد من صحة ما رأت عيني؛ وما هي إلا لحظات حتى قرأت بوضوح، عبارة: «المدرسة الأنانية».

أخذت الكتاب المتروك على الطاولة، وأنا أستخفّ بشكل كلي من عاقبة ما قد يحصل، ولذتُ بالفرار. وعند انعطافة أحد الأروقة، جلستُ في زاوية شبه معتمة، أقرأ في صفحاته.

نُشِر الكتاب سنة 1836، بعنوان: **مذكرات رجل شريف**، وهو لصاحبه جان بابتيست نيري، وورد في فهرسته إشارة إلى فصل بعنوان: «المدرسة الأنانية». تملّكتني رجفة راعدة، أغلقتُ على إثرها عيني تواً، ثم فتحتهما مجدداً، إلا أن الكتاب ظل أمامي، يشير إلى البيانات نفسها...

نُشِرت هذه المذكرات في القرن 19، من قِبَل المدعو هنري رينييه لالو، الذي كان - إن لزمنا أن نثق في ما يزعمه - مؤرخاً؛ وهي مذكرات خُصِّصَت لحياة رجل عاش في القرن 18.

حين قرأت **مذكرات رجل شريف**، اكتشفتُ شيئاً آخر مختلفاً اختلافاً كلياً، عن التأليف الفلسفي. كان جان بابتيست نيري يدبر قاعة ليشانزيليزيان المسرحية، بناحية مونتمارت، وكانت متابعاته ترصد ما حصل خلال عشرين سنة، من تعاطيه لهذه المغامرة الفرجوية. لقد أخرج عدّة تراجيديات شعرية، إلا أن هذا النشاط الثقافي ما كان سوى غطاء يتستّر به على ممارسة أخرى مختلفة: إنه بالفعل، غالباً ما كان يقدّمُ فوق رُكحِ مسرحه الوقور، بعض الغمز الجنسي البذيء، أثناء عرض تراجيدياته الشعرية. إذ لمَ كان يُقحِم في الواقع، كل ذلك الكمّ الهائل من القصائد الغزلية، والقصص الشعرية التي تتغنى بالحبّ، من قبيل: قصيدة **انتصار أفروديت**، **والسفر إلى سيثير**، **والمريخ والزهرة**، **وأسرار أدونيس الملغزة**، **وأهواء أسِبّازيا**؛ حين عرضه لتراجيدية **موت سينيكا**، أو **مأساة ألكسندر**؟ هذا، من دون التحدّث عن قصة **داوود وجوناثاس**، التي لم تكن تتسم بأي مسحَة دينية على الإطلاق، ومن غير الحديث عن مسرحية: **أحلام كوريدون**، التي أعيد تشخيصها عدة مرات، بعد مضي عشر سنين على عرضها الأول، بسبب النجاح الذي لقيته... ثم ما الذي قد يتبادر إلى الذهن، عند سماع أسماء بعض الممثلين الذين لمع اسمهم في ليشانزيليزيان، من قبيل مادموزيل ترومبيت، وموسيو أرديميدون، اللذين لا يوحي اسمهما تحديداً، أنهما خرجا من حظيرة الكوميديا الفرنسية؟ وما الذي سيستخلصه المرء كذلك، حين يتمّ

إشعاره بفقرة مراوغة تقول إن المدعوة مادموزيل ترومبيت: «حتى ولو أنها كانت تعجز عن إلقاء مقطع شعري ما بطريقة سليمة، وحتى ولو أنها كانت عاجزة عن الإمساك بمأسوية موقف من المواقف، لحظة التشخيص»، فإنها ظلت مع ذلك تسرّ الجمهور، «بسخاء جمالها وفتنته، ورشاقتها البهلوانية المرنة، وحُميّة مزاجها المندفع»؟ من المؤكد، إذاً، أن يكون جان بابتيست نيري مؤسساً للفرجة الإيروتيكية في باريس ذلك العهد، وأن مسرحه كان بحق وحقيقة، مسرحَ مجون.

ومهما يكن، فإن نيري قد تحدَّث عن غاسبار، وهذا وحده ما كان يهمني، ويشغل بالي. وهكذا، لاحظت بنوع من الدهشة، أن هذا الفصل المخصص لغاسبار لانغونهيرت، رغم عدم اتساقه الأسلوبي، ظلّ الفصلَ الوحيدَ الأكثر أناقة، من بين سائر فصول الكتاب، بحيث إنه كُتب بخط واضح ورشيق. ها أنذا إذاً، أطّلع أخيراً على ما كانته المدرسة الأنانية، وعلى ما كانته تعليمات غاسبار.

ربيع 1732 - المدرسة الأنانية

في هذه الفترة من الجدب الفكري، ظلّ الناس في تعطُّش واضح، يجرّون وراء كل وليمة فكرية تُقَدَّمُ لهم، حتى وإن كان سيتكشف لهم في الأخير، أنها لن تُغني، ولن تُسمن من جوع. وهكذا، لم يسبق لباريس قط، أن رأت مثل هذا الكمّ الهائل من الأطعمة الفكرية، التي يغالي بعضهم في طلب ثمنها، حتى صار بمقدور المرء أن يصادف في جميع أرجاء المدينة، أولئك المتشبّهين بأساتذة الفكر، الذين قد يفتحون للإنسان الشهية في الوهلة الأولى، إلا أنهم سرعان ما يتركونه يتضوّر جوعاً في الثانية، أما في الوهلة

الثالثة فقد يقسم بأغلظ أيمانه أن لا يعود إلى الوقوع في مثل هذه الشراك أبداً، غير أنه سرعان ما يجد أن الوقت فاته، والعادة قد تأصّلتْ فيه، ليصير بفعل ذلك محباً لكل طائر برّاق اللون، ومنخرطاً في لعبة البحث عن تلك الطيور.

وقد زارني في يوم من الأيام، أحد هذه الطيور الغريبة، وكان بمظهر نظيف حريّ بإغواء النساء، وكانت هيأته سوية، ويرتدي ملابس فاخرة، إلا أن وضعيته نمّتْ عن عجرفة ولامبالاة كبيرتين، حتى ليمكن لكل من يراه القول: إنه حيثما رحل، أو ارتحل، إلا ويشعر أنه في مُلْكِه، وفي قعر بيته. وقد اقترح علي أن يكتري مني مسرح ليشانزليزيان، لمدة يوم واحد في الأسبوع، كي يُنشئ فيه ما أسماه بـ: «المدرسة الأنانية». وأقرُّ صراحة أني لم أكن قد استوعبتُ جيداً، في تلك اللحظة التي أربكني فيها اقتراحه، ما كان يعنيه بتلك العبارة، فانبريتُ أسأله، وكنتُ مرتاباً من أهل الطوائف، وأصحاب الملل والنِّحَل كافة، إن كان في هذه المدرسة المزمع إعدادها، ما قد يخرج عن الأخلاق العامة، أو يُخِلّ بالمعتقد الديني؛ بالطبع، لم يكن هذا الأمر نابعاً من قناعة خاصة عندي، وإنما سألته عنه حتى أتقي شرّ تلك المضايقات، التي لا فائدة ترجى منها. وكان كل ردّه، أن اكتفى بقهقهة مجلجلة، وضع على إثرها صرة ملأى بقطع ذهبية فوق طاولتي، ثم خرج وهو يطلب مني أن أفكر في العرض ملياً، لبضعة أيام.

كنت على أهبة أن أعيد له المال، لمّا تدخّلت حسنائي سوزون، لتنبّهني إلى أنه إذا كان ناقص أدب، وغير مكترث للياقات الأخلاقية بالمرة، فإنه لا يعدم مع ذلك، الحجّة المادية اللازمة لإثبات حسن نيته. أضف إلى كل ذلك، أن عجزنا المالي جعل أعمال صيانة سقف المسرح، تسير ببطء شديد، ثم إن مسرحية **حماقات أغريبين**

الشقية، كادت أن تفقد الترخيص الذي يسمح لها بالعرض، بسبب تلك الإيحاءات التي أبت المحكمة إلا أن تراها فيها.

وهكذا إذاً، قمتُ بالاستعلام عن السيد دو لانغونهيرت. وأثناء ذلك الاستعلام، تجمَّعت لدي جميع الأقوال والشائعات المختلفة، التي ظلّ الناس يروّجونها عنه. وأقل ما يمكن قوله بشأن ذلك، هو أن صاحبنا، رغم أنه كان معروفاً في الصالونات الأدبية، فإن الإجماع حول شخصه ظلّ أمراً غائباً: فهو عبقري، ومجنون، وفيلسوف من النوع الأصيل، وفيلسوف غريب النوع، ودجّال، وذو طموح، وهو إرستراتا معاصر وجاهز لحرق جميع هياكل العقل السديد، للفت الانتباه - بتناقضاته السافرة - إلى شخصه، أو هو على الأصحّ رجل فكر تقمّص روح أفلاطون، فأسّس مذهباً فكرياً يتسنى لكل من هبّ ودبّ، اعتناقه في القرون القادمة. لقد كان بالنسبة إلى مَن تحدثت إليهم، شخصاً موعوداً بالالتحاق بقصر فيرساي، أو بالأكاديمية، أو بمؤسسة بوتيت ميزون. ومن كل مَن التقيتُ بهم، وحدثوني عنه، يتسرّب شيء واحد مع ذلك، وهو أن الرجل يدافع عن فلسفة أنانية، تقول إنه الموجود وحده، بينما العالم وأنتم وأنا وباريس وفرنسا كلها، ليست سوى مخلوقات هو الذي خلقها بخياله. حينها، فهمتُ بكيفية أفضل سببَ عجرفته وتعاليه، فسألتُ عن حالته المادية، وإن كان ذا ميسرة، فبلغ إلى علمي أنه غني حدّ التخمة، لأن أبويه (وهما من كبار التجار في لاهاي)، اضطرا لحُسن حظه، إلى الإيمان بحقيقة الواقع، من أجله؛ كما بلغني كذلك أن عشرات التجار في ساحة باريس، ظلوا يعدّونه مصدرَ دخلٍ مهمٍّ، بمن فيهم بائعو البُسُط، والمجوهرات والخياطون؛ إذ كان يكفي أن يتقدّم إلى ذلك الأخرق، أحد هؤلاء

الحرفيين، ليظنّ أن رغبته المبيتة هي التي جعلت ذلك الحرفي ينتصب أمامه، فيشتري هو منه البضاعة على الفور. وقد تنبأ له بعض المتشائمين، بأن يتمّ نهبه في أشهر معدودة، بالنظر إلى ذلك الإيقاع الأخرق الذي يتبعه في الإنفاق.

قبلتُ المقترح، إذاً. وطلبتُ منه مبلغاً سميناً، قبِلَه صاحبنا على الفور، دون أي مشاكسة. وهكذا افتتحنا المدرسة الأنانية بباريس، واتفقنا على أن لا يكون لي دخل في ما يروج فيها، وأن أكتفي بتأمين المؤونة لها، وحسب. لقد جعلني إدراكي لمصلحتي الشخصية، أتحفظ على الدوام من نشوة الذكاء.

لا أدري كيف جمع الفيلسوف التلامذة من حوله، وأظن أنه نشر كتاباً بهذه المناسبة، إلا أن الاجتماع التهييئي ما لبث أن ضاق بحشد مهم من الجماهير. انضم الفضوليون إلى الساخرين، إلا أن السيد دو لانغونهيرت، وبعد إجراء مقابلة اختبارية مع كل من يهمه الأمر، انتقى عشرين نفراً من المقتنعين بفلسفته، لينتهي إلى تسجيل أسمائهم في سجلّ محاضراته الأسبوعية. وبعدها، طلب من الآخرين باسم مبادئ المعرفة العلمية، أن ينسحبوا. وهكذا، غرق هو في النوم، بينما كانت القاعة تفرغ من الناس. أعترف أني شعرتُ بقليل من الإحباط، بفعل تلك القيود الصارمة التي فرضها، حتى إن حسنائي سوزون قد خشيتْ أن لا نجني من هذا، ما من شأنه أن ينفعنا في إصلاح سقف المسرح. إلا أن السيد دو لانغونهيرت، ودون أن يُعطي الانطباع بأنه استفاق فعلاً من غفوته، ما لبث أن أخرج من بين ثِنايا ثوبه، صرة مالية أخرى. إنه في المحصلة النهائية، لمجنون بمذاق سائغ للغاية.

* * *

جرتْ الحصة الأولى، يوم 28 آذار/ مارس. وينبغي لي أن أقرّ هنا، بأن السيد دو لانغونهيرت لم يكن قد صدر عن مسبقات، تنحاز إلى وضعه الاجتماعي في عملية انتقائه للمريدين، هو الذي وُلد نبيلاً، وظلّ علاوة على ذلك غنياً؛ لأن المجموعة التي انتسبت إليه، بدتْ مزيجاً من الأخلاط والأشتات، يستطيع المرء أن يعاين فيها أحد المحسوبين على كبار الأعيان، وماركيزاً مسنّاً، وساعاتياً، وخبازاً مخدوعاً، وأستاذاً يدرّسُ اللغة الإغريقية في معهد سان جوزيف للخطابة، وبعض الوجوه الطريفة الأخرى، ممن لم أعد أذكر شيئاً عنهم.

جاء الجميع قبل الموعد المحدد بوقت يسير، وأخذوا يهنئون بعضهم بعضاً بشكل حبّي، وكان الكل من دون شك مبتهجاً ومنشرحاً، لوجود شريك له في الرأي، حتى ولو أن ذلك الرأي في الأصل، ليس من الآراء التي قد يشترك فيها الناس بعضهم مع بعض، مثلما قلت لحسنائي سوزون.

بعد هذا الاستعراض للسُّحَن المبتهجة والمنشرحة، صعد السيد دو لانغونهيرت إلى المنصَّة، وكان وجهه يشعّ بفرح لم أرَهُ عليه من قبل أبداً، وقد علمتُ في ما بعد، أن الرجل كان فرحاً فقط، لأنه كان يفكّر.

- يا لها من سعادة يا أصدقاء، ونحن نلتقي هنا جميعاً، يوحّدنا طموح واحد هو البحث عن الحقيقة. لذا، أعلن إذاً، عن افتتاح المدرسة الأنانية الباريسية.

صفَّق له المريدون تصفيقاً حاراً، وتبادلوا في ما بينهم، التحايا المشبعة بفرح غامر.

وبحماس، استأنف السيد دو لانغونهيرت خطبته، قائلاً:

- لنفترض هذه الجملة الأساسية: «**أنا لذاتي هو العالم، وأنا هو كل الواقع، بل وحتى أصل ذلك**»، فكيف يتسنّى لنا طرحها طرحاً عقلياً؟ أقترح أن تكون البداية، هي تأسيسها على نظرية الأحاسيس. إذ من أين تأتينا الأفكار؟ أكيد أن...

قاطعه الخباز المخدوع، يقول:

- لستُ أعرف بأي حق تحتلون المنصة، وتستحوذون على الكلام؟! كفى تعالماً إذاً، ما دمتُ أنا، وأنا وحدي، حقاً، هو أصل كل شيء، وأنا العالم. هيا انسحبوا، واهبطوا من فوق سدّتِكم، فإني ذاهب إلى المنصة، لأشرح لكم كيف ينبغي أن تُطرح تلك الجملة، للتحليل.

أمعن السيد دو لانغونهيرت النظر في عيني الخباز، ثم همس قائلاً في ابتسام:

- هيا، هيا، الوضع هكذا أفضل بكثير.

لا شك أن ذلك الرجل يستضمر ما لستُ أعرف من سلطان، لأن الخباز ما إن سمع ما سمع، حتى عاد إلى مكانه، بتعقّل وحكمة.

- نظرية الأحاسيس إذاً، هي وحدها الكفيلة بالتأسيس العقلاني لـ...

- ألتمس منكم العذر عن هذه المقاطعة، قال ذلك الرجل المحسوب على كبار الأعيان. لكني لا أفهم سبب ترككم لكيس الطحين هذا، والمثير للسخرية والضحك، يدّعي أنه أصل كل شيء، ما دمتُ أنا هو فاطر العالم، وقد سبق لنا معاً أن اتفقنا ودياً على

ذلك، في الأسبوع المنصرم؟! إني لا أستطيع ترك مثل هذه المغالطات تروّج، بين الجمع.

- عفواً، فاطر العالم هو أنا! قال السّاعاتي.

- أبداً، إنه أنا، قال أستاذ اللغة الإغريقية.

- بل أنا، قال الخباز من جديد.

- إنه أنا.

- بل أنا.

- أنا هو.

- بل أنا.

قام المريدون العشرون من مقاعدهم، وأخذوا يتصايحون، ويشير بعضهم إلى بعضهم الآخر، بحركات معيبة ومهينة. وبدا كأن السيد دو لانغونهيرت، الذي ظل يتفرّج باندهاش على ما يجري، قد وقع ضحية ألم مداهم وقوي في الرأس، فأسنده بين راحتيه.

ظل الآخرون يزعقون، ويتصايحون من غير انقطاع. ضرب الخباز جاره، وهوى أستاذ اللغة الإغريقية بقاموس ضخم، على رأس من كان يجلس بجواره، وأخذ المحسوب على كبار الأعيان ينط، ويقفز، ويوزِّع الركلات غير اللائقة بخفّه، هنا وهناك، على اليمين تارة، وعلى الشمال أخرى؛ ثم في لحظة وجيزة، علا الصراخ، وحلّقت الريشات في الفضاء، والنفاخات، والعصي، وقلبت الكراسي، وانتزعت الستائر، وزادت حدة التضارب والتلاكم.

هرولنا، سوزون وأنا، في اتجاه البئر التي تتوسط الساحة، وأخذنا نقذف المجمع الفلسفي بدلاء من الماء البارد. ثم أمرت الجميع بالجلوس ثانية.

خرج السيد دو لانغونهيرت من غفوته، وأمعن النظر في الجمع المبلل بهلع، وأعلن بصوت جاف أنه سيفسّر للحاضرين علة هذه الفوضى، في الحصة القادمة. ظن كل واحد من هؤلاء أنه سوف يعترف أخيراً، بتفوقه علانية في الأسبوع القادم؛ وهكذا تفرّق القوم، وهم مسرورون تقريباً.

ترك السيد دو لانغونهيرت بين يدي، صرة أخرى من المال، تعويضاً عن الخسائر التي تكبدها المسرح. وبدا لي أنه كان يتألم، في أعماق نفسه.

* * *

خلال الحصة الثانية، وصل حقاً كل فرد من أفراد المجموعة، في وقت مبكر جداً، وأخذ الكل يشيع من حوله مظهراً من المكر، أشبَه بمن يحتفظ في قرارة نفسه بمفاجأة ما، قد يطلع بها بغتة على صحبه؛ ثم حيَّا بعضهم بعضاً بطرف شفتيه في سخرية، وأخذ الجميع ينتظر في صبر متصنّع، قدومَ الخطيب.

ذكّر السيد دو لانغونهيرت بالأحداث المأسوف عليها، التي جرت في الحصة السابقة، مقترحاً توضيح الأسباب التي أفضتْ إلى ذلك، لكنه ما إن فتح فمه بالحديث، حتى هوتْ على الأرض ثريتي الرائعة ذات الشموع الستين، التي علّقت عشية الأمس بالسقف، فأحدثت ضجة كبيرة إثر ارتطامها بالأرض. تهشمت الثريا بين دكة المنصة والصفّ الأول من المسرح، وتوزّعتْ على إثر ذلك شموعها الستين التي كانت - لحسن الحظ - منطفئة في كل ناحية، متدحرجة تحت الأرجل والكراسي.

ردّد المسرح رجع الارتطام، للحظات مديدة. ثم تلا الكارثة

صمت أشبه بصمت المقابر. ثم مزّق صوت جليدي بارد بعد ذلك، ستار الصمت:

- من فعل هذا؟

صار الصمت أكثر ثقلاً. وإذا بصوت آخر يستأنف قائلاً:

- إن أحداً ما يريد الحيلولة دون انكشاف الحقيقة.

وعلى إثر ذلك التدخل، عقب صوت آخر يقول هو أيضاً:

- إنها لمآمرة.

- إنها خدعة.

- هي مكيدة مدبرة.

ثم نهض الجميع من مكانه على حين غرة، وأخذ يتصايح، بعضهم يتّهم، وبعضهم يسبّ، وبعضهم يهدد، وبعضهم الآخر يعنّف، لأن كل فرد من هؤلاء ظلّ يعتقد في قرارة نفسه، أن هناك من يحاول الحيلولة دون إعلانه الإعلان النهائي، أنه بمفرده الواحد القهار. ولم تمضِ إلا خمس دقائق على ذلك، حتى تشابكت الأيدي. ثم لم تمض إلا عشر دقائق أخرى، حتى ابتلّت الملابس والرؤوس، لأنّا - سوزون وأنا - اكتسبنا، بعض المهارة في القذف بدلاء الماء.

أجبرناهم على الجلوس بالقوة، فاحتاج السيد دو لانغونهيرت - بعدما حرّك رأسه، وكأنه شخص خرج من كابوس - إلى الكثير من ضبط النفس وتمالك زمام أمره، كي يضرب لهم موعداً في الأسبوع القادم، متعهداً بأن يسلّط الضوء على هذه القضية الأخرى. ثم انسحبوا وهم حانقون.

بعد ذلك، أخرج فيلسوفنا بمرارة وحزن شديدين، صرتين من

جيبه، تعويضاً لنا عن الخسارة التي لحقت بالثريا، فاقتنعنا - سوزون وأنا - بأن هذا الرجل يستحق أفضل ممّا حصل له.

* * *

بدأت الحصة الثالثة، ببرود شديد. وصل أعضاء المجموعة واحداً وراء الآخر في صمت، وبدا كأن الجميع قد أُكْرِه على الحضور وحسب، ثم أخذ الحاضرون يتفحّصون في بعضهم، غافلين عن تبادل التحية. وقد ارتبتُ في أن يكون بعضهم، أخفى سلاحاً ما تحت معطفه؛ أما سوزون فإنها أسرّتْ لي بصوت مهموس، أنها تفضّل منذ ذلك الحين، أن تدير بيتاً مشبوهاً يؤمّه اللصوص وقطاع الطرق، على أن تدير تجمّعاً يضمّ أهل الفلسفة.

بدا السيد دو لانغونهيرت في غاية الهدوء.

- أصدقائي الأعزاء، كل الخصومات التي فرّقتْ بيننا في الحصتين السابقتين، هي في المحصلة النهائية، من الأمور المتوقعة والمفهومة كثيراً. والسبب في كون ذلك كذلك، هو أننا جميعنا ضحايا الخطأ نفسه: الالتباس الذي تضفيه اللغة على الفكر، لأن اللغة مضلِّلة وخادعة. لذا، ينبغي أيها السادة، أن نقرّ بهذا: إن لغتنا ليست فلسفية.

«فإن قلتُ، بالفعل: **إن كل واحد هو لوحده العالم، وهو أصل كل شيء**، فإني في هذه الحالة، أساهم في فرقتنا، وأكون مناقضاً لنفسي. أما إن قلت: **أنا وحدي هو العالم، وأصل كل شيء**، فإني لا أكون في هذه الحالة، منسجماً مع نفسي وحسب، وإنما سيكون بمقدور جميع من سوف يردّد عبارتي كذلك، أن يوافق عليها، وأن يقرّ بها، لأن كل واحد منّا يفكرّ في قرارة نفسه، ما يلي: **أنا وحدي هو العالم، وأصل كل شيء**، أليس كذلك؟

صادقت القاعة على كلام الفيلسوف.

- إن اللغة إذاً، هي التي تخدعنا، وتضلّلنا. إذ النحو، كما التصرّف في اللغة، يفرضان علي أن أميّز بين ستة ضمائر: أنا، وأنت، وهو، ونحن، وأنتم، وهم، في حين أن ما من موجود ثمة، سوى اثنين: أنا وتمثلاتي الفكرية. لذا، فلنعمل على حذف غير المفيد من تلك الضمائر، وتشطيب الزائد منها عن اللزوم، ولنُقصِر عملية تصريف الأفعال على ذانك الحدّين القويمين.

ليردّد كل منكم معي، إذاً: «لقد قررتُ اليومَ، إصلاح اللغة إصلاحاً فلسفياً، بإقصاء الاستعمال المرفوض لضمير المخاطب والغائب والمتكلم الجمع والمخاطبين، عن لغتي؛ لأني وحدي هو العالم وأصل كل شيء؛ كما قررتُ بهذا التطهير اللغوي، أن أتخلّص من أوجاع الرأس غير المحتملة، التي ظلت منذ الأبد، أوجاعي».

ومثلما تردد الجوقة ترانيمها الدينية، ردّد الجميع خلف الفيلسوف، بكيفية طقوسية:

- لقد قررتُ اليومَ، إصلاح اللغة إصلاحاً فلسفياً، بإقصاء الاستعمال المرفوض لضمير المخاطب والغائب والمتكلم الجمع والمخاطبين، عن لغتي؛ لأني وحدي هو العالم وأصل كل شيء؛ كما قررتُ بهذا التطهير اللغوي، أن أتخلّص من أوجاع الرأس غير المحتملة، التي ظلت منذ الأبد أوجاعي.

ثم استأنف السيد دو لانغونهيرت يقول:

- وهكذا، كلما ردّد مخلوق من مخلوقاتي كلمة «أنا»، إلا وصار ينبغي أن أفهم منه بدوري، وفي الحال، أنه يشير إليّ أنا بالذات، فيذهب فكري إلى أناي أنا، ومن ثمة لا أغدو كاذباً.

واستأنف الجميع يردد، بصوت صارخ:

- وهكذا، كلما ردَّد مخلوق من مخلوقاتي لفظة «أنا» إلا وصار ينبغي علي في الحال، أن أفهم منه بدوري، أنه يشير إليّ أنا بالذات، وأن يذهب فكري إلى أناي أنا، ومن ثمة لا أغدو كاذباً.

- إن كل شيء ينطلق مني، وإلي يعود.

- إن كل شيء ينطلق مني، وإلي يعود.

وفي الحال، غطّى على القاعة سيل من التصفيق الهذياني غير المنقطع. ثم أخذ الكل يهنئ الكل، ويشدّ على يده، وفتحت إثر ذلك القنينات، وجيء بكؤوس للاحتفال. لقد فهم كل مريد، حتى ولو لم يكن قد استوعب كل شيء مما قيل، أنه كان على حق، فأخذ الكل يهنئه الكل، ويشرب. وكان علي أن أجرع أنا بدوري عدة براميل، لأن الحصة لم تنته إلا في وقت متأخر جداً، بينما دفع لنا السيد دو لانغونهيرت، وكان فاقداً لوعيه من شدة السكر، قيمة الكراء بطريقة ملكية، تراجعت حسنائي سوزون على إثرها، وكانت متأثرة بما صدر عن ذلك الرجل، عن الكلام الذي قالته من قبل، بشأن الفلسفة والفلاسفة. حقاً، إن مستقبل حلقتنا الصغيرة أثينا، قد أخذ في التخلّق، وصار يكشف عن نفسه بوضوح.

* * *

في الحصة الرابعة، أبان السيد دو لانغونهيرت عن نبوغه. فقد ربط الفلسفة الأنانية، بالنظريات الإنجليزية الجديدة التي تعالج مسألة الإدراك، وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمعتُ فيها بأسماء من قبيل نيوتن، ولوك، وبيركلي؛ وأقرّ بأني لم أكن قد استوعبتُ كل شيء ممّا قاله، إلا أن خطبته بقيت قويةً. أمّا مريدوه فظلّوا للأسف، يتثاءبون طيلة الوقت، ولم يستعيدوا نشاطهم إلّا في اللحظة التي فُتحت خلالها بعض القنينات. يقال: مع الخمرة تتكشّف الحقيقة،

إلا أني أشك في أنّ هؤلاء كانوا يكترثون للحقيقة، ولو ذلك الاكتراث الضئيل للغاية.

وفي الحصة الموالية، أخذ عدد المريدين يتناقص؛ وظلّ الأمر كذلك، في الحصص الموالية الأخرى. وبدا بشكل مفارق، أن السيد دو لانغونهيرت بقدر ما صار أكثر عمقاً، بقدر ما تعب هؤلاء في الاستماع إليه.

ثم حلّ أخيراً، ذلك اليوم الذي لم يعد يحضر فيه أحد...

كنّا - سوزون وأنا - في غاية الحزن، لمّا دخل علينا السيد دو لانغونهيرت. إلا أن هذا لم يظهر عليه للغرابة الشديدة، أدنى مفاجأة، وإنما بدا كما لو أن الأمر لم يؤثر فيه إلا بكيفية طفيفة جدّاً، لذلك أثرتُ المسألة معه، وأنا مندهش. حينها، أجابني ضاحكاً، أن كل ما كان ينبغي عليه قوله قيل سابقاً، وأن ذهنه صار منذ أسبوعين، يمتنع عن التفكير في أي شيء جديد، مهما يكن نوعه؛ ومن ثمة، حان الوقت لتتوقف المدرسة، وتُقفل أبوابها، مثلما أشارت له بذلك الكراسي الخالية، اليوم. دفع لي آخر ما تبقى بذمّته، ثم أضاف صرة أخرى، وانصرف في هدوء. وأقرّ بأنّا بتنا - سوزون وأنا - وفي تنافٍ كلي مع مبادئنا، نشرب ذلك المساء، أكثر ممّا تطلّبته منا محاولة إجلاء الحزن عن ذهنينا.

وفي السنة الموالية، بلغ إلى علمي أن السيد دو لانغونهيرت سافر إلى الضاحية للاستقرار هناك، وهو ما رأيت أنه خسارة بالنسبة إلى رجل، له مثل تلك القيمة. ومن ثمة، ما عاد يُسمَع عنه في باريس، أي شيء يذكر.

بعد قراءتي لذلك الكتاب، اتخذتُ قراراً بالذهاب إلى أمستردام. إذ لو وُلِد غاسبار هناك، للزم أن تبقى بعض آثاره. ثم من يدري، قد يكون عاد ربما إلى مسقط رأسه، بعد ذلك الفشل الذي مُنِيَ به، في باريس؟!

بدا لي فجأة، أني محقٌّ كثيراً في اتخاذ ذلك القرار، فبنيتُ عليه، مثلما يجري مع كل نزوة غير مضبوطة بضابط العقل، أملاً كبيراً.

لقد صارت باريس بالنسبة لي، مكاناً غير مُحتمل: كل شيء فيه كان يستحثّ خروجي عنه، وإخلائي له. المكتبة الوطنية لم تعُد سوى هيكل نخِر كبير، ظلّ كل رفّ من رفوفها يسخر مني بصمته؛ أما شقّتي فصارت مطرحاً للمهملات. وأنا لم أغتسل منذ أسابيع، مثلما ينبغي لي أن أغتسل، وإنما اكتفيتُ بين الفينة والأخرى، بارتداء النقي من ملابسي الموجودة بالخزانة بشكل آلي، حتى لقد بدأت بارتداء السراويل والقمصان الصيفية، تحت معطفي الثخين. وقبل مغادرة الشقة، أجهدتُ نفسي مع ذلك، بالتقاط الملابس والأغراض المتكدسة فوق الأرضية، ووضعها في كيس بحجم كبير،

ثم عهدت بها إلى محل التنظيف. وهكذا سافرتُ إذاً، وأنا نظيف، وحليق ونقي تقريباً.

ليس ثمة من سفر أكثر تجريداً، من السفر في الطائرة: إذ لم أرني صاعداً، ولا مقلعاً، ولا هابطاً؛ وإنما كل ما رأيته هو بعض المضيفات اللطيفات اللواتي تناوبن علي، واهتممن أيّما اهتمام بمعدتي الصغيرة، بشكل لطيف ومتناوب؛ وحين أخبرنني بنهاية الرحلة، بدا لي مطار الوصول شبيهاً بمطار الذهاب، كما بدا لي أن المسافرين هم المسافرون نفسهم. إلا أن نبرة سائق التاكسي، عادت لتطمئنني: كنت في أمستردام، بالفعل.

تشيع مكتبة أمستردام الكبرى في النفوس، الراحة الوهمية نفسها التي يحققها كل سفر دولي كبير بالطائرة. كل شيء فيها نظيف، وعصري، ولامع، وفسيح، وغير ملزم. وهكذا انتهيتُ بأن وجدتُ نفسي من جديد إذاً، وأنا تحت أضواء النيون، أمام الجذاذات التي تحمل علامة حرف اللام.

لانغنهار، لانغينارت، لانغونير، لانغونيرت، لانغونهي... وهنا، حيث ينبغي لي أن أكون أمام جذاذة لانغونهيرت، وجدتُ مظروفاً صغيراً أبيض، موجهاً باسمي الخاص.

باسمي؟

ظننتني أحلم.

أغلقتُ عيني لبرهة، ثم فتحتهما مجدّداً، إلاّ أن المظروف ظلّ هناك. أمسكته بين يدي، فوجدت أنه بحق وحقيقة شيء مادي، وليس صنيعة أوهامي. فتحته، فانفتح بطواعية.

في داخله، يركن ورقٌ مقوى صقيل من صنف البيسترول، يتوجه إليّ بالاسم والصفة، ويتضمن هذه الكلمات التي كتبت بخط واضح:

سيدي العزيز،

لا فائدة من البحث هنا، لأنك لن تجد أي شيء. توجّه بالأحرى إلى أرشيف بلدية لوهافر، واسأل عن «مخطوطة شامباليون»، لسنة 1886، والتي سجِّلت تحت عدد: 745329.

لا داعي لشكري.

لم تكن تلك الورقة تحمل أي توقيع.

كانت ورقة البيسترول مطوية بين أصابعي، والسقف لا يزال فوق رأسي، والأرض ثابتة تحت قدمي. كل شيء ظلّ طبيعياً وعادياً، بشكل رهيب. لقد كان حرياً بجنيٍّ ما، أو بدخان سحري، أو ببعض القطط السماوية أن تزرع في قلبي بعض الطمأنينة النسبية، أما وأنا على ذلك الوضع الذي كنت عليه هناك، في تلك القاعة العمومية، فإن ما من شيء جعلني مشدوداً للوضع فوق - الطبيعي، وإنما بقي كل شيء في مكانه، يشِعُّ بالتجرّد الموضوعي الحداثي نفسه.

ومع ذلك...

ومع ذلك، فإن ورقة البيسترول هذه...

ترى مَن؟ مَن الذي بعث بها، إذاً؟

* * *

من أمستردام إلى لوهافر. ليس ثمة خط مباشر بالطائرة. يلزم

الانتظار. كما يلزم تبديل الطائرات. لذا، صار من اللازم ركوب القطار إلى باريس. إلا أن سكة الحديد، لم تبدُ لي من ذي قبل أبداً، بكل ذلك الطول المملّ، إلا خلال ذلك الصباح. في الأقل، تحرص الحافلات العمومية على التوقف، في كل المحطات.

أخيراً، وصلتُ إلى أرشيف بلدية لوهافر. تلقّى موظف الأرشيف الوحيد طلبي، بعين من الشك والارتياب، وكان قصير القامة، وبنظارات طبية سميكة ودائرية. من الجلي أنّ عزمي الثابت على الاطّلاع على «مخطوطة شامباليون» أثار لديه بعض الارتياب، أضف إلى ذلك أني كنت غريباً عن الناحية. بعدها، غادر الموظف بخطوات قصيرة، واختفى زهاء عشر دقائق، ثم عاد مرة أخرى، وفي يده لفّة كارتونية.

- أشعِرُكم بأن كل صفحات أرشيفنا مرقمة ترقيماً مضبوطاً، وبأني سأراجعها للتحقق من وجودها متسلسلة، بعد أن تعيدوا لي الوثيقة.

شكرته بحرارة، فحدجني بعين دعجاء. لقد كانت فرحتي تحقيراً لشرفه المهني ذي الضمير الحي.

أخرجتُ من اللفة عشرين صحيفة بها كتابة ضيقة، اسْتُعمِل فيها مداد خبّازي اللون، كان من دون شك بنفسجياً. على اللفة، وضعت علامة تُشير إلى أنّ الأمر يتعلق بمخطوطة جديدة، من توقيع المدعو أميدي شامبوليون، الذي كان أستاذاً بثانوية كولبير، وانتقل إلى الخدمة بالأرشيف البلدي، سنة 1886. وإلى ذلك الحدّ، لم أرَ ما علاقة كل ذلك، بالقضية التي تهمني.

جلستُ بالقرب من إحدى النوافذ، فشرعتُ في القراءة.

كان الهواء ثقيلاً، بفعل الدخان. إلا أنّ لقاءاتنا مساء السبت، ببنْسيون فوبورغوي، تمضي دائماً على أحسن ما يرام. إذ لا شيء في العِشرة، يعادلُ صحبة عزاب ثمانية، في عنفوان شبابهم؛ وهكذا كانت الشهية تُفتح، والخمرة تدور، وأزرار الصدريات تُفكّ، في منأى عن كل حضور أنثوي، بينما الأحاديث الشاجنة تفضح كل مخبوء ومستور. قصّ علينا المهندس غودار، للمرة المائة ربما، ما جرى له مع زوجة الأب، التي أفقدته، وهو ابن الرابعة عشرة، عذريته؛ وتظاهرنا نحن من جانبنا، للمرة المائة تحديداً، بعدم تصديقه، لأن الحدث بدا لنا مختلقاً؛ حينئذٍ، أضاف غودار للمرة المائة، أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات الأشد دقّة وغرابة، إلى أن اقتنعت جوقتنا بأنّ من غير الممكن حقيقة، أن يُختلق هذا اختلاقاً، وبذلك أجبرَنا هو على تصديقه. أما ديبيس البيطري فحكى لنا عن خسّة المزارعين البروتونيين، بينما الدكتور مالان الذي كان له، لحسن الحظ، بعض أفراد العائلة بباريس، فقد أخبرنا عن الفساد العام الذي طال تلك العاصمة البشعة والمهيجة للشهوة...

ظلّت حرارة الطعام، وحمّى الخمرة، وطريقة الحديث الماجنة، تستثير شهواتنا؛ وكنا نشعر بقدوم تلك اللحظة التي ستُنهي بها مجموعتنا، ككل يوم سبت، السهرة في البيت رقم 39، الذي يقع بالزقاق المغلق ناحية بيكار، بين أحضان الجميلات الداعرات، اللواتي قد يجدن في ما بعد، الكثير من العنت في إيقاظنا. لنكون قد قضينا، إجمالاً، سهرة ممتازة.

وفي ذلك المساء، كان عزيزنا لامبير، الموثّق بسانت مالو، قد

أحضر معه مساعده الشاب. وقد أبان ذلك المريد، أثناء لحظة تقديم الطعام، عن كونه أهلاً لكل الآمال المعقودة عليه، لاستطابته الطعام والنبيذ والنقاش، وضحكه من النكت والمُلح التي تداولناها بيننا، ولشكواه من ثقل المعدة، كما نشتكي نحن كذلك منها، ولإصغائه برغبة، على ما يبدو، لحكايات مجوننا؛ كل هذا دون أن يتخلّص من ذلك التحفُّظ المحتشم والمُشبع بالإعجاب، الذي عادة ما يقدّره الكبار بكثرة، في فئة الشباب. ومع ذلك، لاحظتُ كيف أن وجهه - لحظة تقديم القهوة - قد اكفهرّ، وتجهّم.

وحين دار الشراب الروحي بيننا، اغتنم ذلك الفتى لحظة من الوقت الميت، فصلت بين استرسالنا في تذكّر الماجن من أفعالنا، فقال بصوت خفيض، وهو يتابع بكلتا عينيه، خيط الدخان الصادر عن شفتيه:

- شيء رائع أن يوجَد المرء بين أحضانكم، أيها السادة. إلا أني ما أنفك أن أسائل نفسي، كدأبي حين أكون مسروراً دائماً، إن كنت حقاً لا أحلم. فهل صُنع العالم من نسيج الحقيقة، أم أنه صُنع من نسيج الوهم، مثلما قال الشاعر؟!

أضفى خدرُ ما بعد العشاء، وقد امتزج بحالة السهر، وبالاسترخاء الناجم عن الشعور بالارتياح، على كلام ذلك الشاب ثقلاً غريباً. أعترف بأني كنت لحظتئذٍ، غير قادر على التأكّد من أني كنت يقظان، فعلاً. ترك الشاب الصمتَ يرفّ علينا للحظة، وظل انتباهنا معلقاً. وعلى الرغم مني، انسدّت عيناي. ثم طلب منه المهندس غودار، بصوت غامق وكأنه كان مخنوقاً، بأن يتابع الحديث.

شرع مساعد الموثق يفكّر، وهو يتفرّس في وجوهنا، الواحد تلو الآخر.

- مَن يثبت لكم يا دكتور مالان، أنكم موجودون هنا في هذا المجلس بحقّ وحقيقة، وليس فوق مقعدكم الوثير، أو على سريركم؟ وأنتم يا مهندس غودار، من يضمن لكم بأنكم لا تحلمون بتاتاً، وإنما أنتم الآن تشربون، وتدخنون، وتمزحون مع أصدقائكم؟ من المؤكد، أنكم تستطيعون لمس بعضكم بعضاً، مثلما ستقولون، كما أنكم تستطيعون وخز أنفسكم؛ إلا أننا نستطيع في مسرح ليالينا، أن نشم، وأن نتذوق، وأن نجسّ مثلما نفعل في النهار، كما أننا نتوهم أنّا نركب عربات حقيقية، ونمتطي صهوة جياد حقيقية، ونأكل لحوماً حقيقية، ونقبّل امرأة حقيقية؛ والحال، أن ما ثمة سوى سديم خيالي، مثلما يخبرنا بذلك انبلاج الصباح. لكن، أليس من الممكن أن يحلم المرء بأنه يستفيق؟ وهل سيُستفاق من الحياة، في وقت ما؟

توقّف عن الكلام فجأة، وانغلق على قوقعة نفسه، وكأنما انخطف بفعل ما لستُ أدري، من أفكار موخزة. وإني لأعترف بكوني لم ألحظ، إلا في تلك الأثناء بالضبط، مظهر هشاشة ذلك الشاب خلف هندامه الريفي الأنيق، ووجهه الشاحب الذي قد تكون نهشته، حالة من العُصاب المرضي. وكانت ثنية المرارة ترتسم على فمه، أما عيناه السوداوان اللتان يتطاير منهما الشرر، والضيقتان مثل كوَتيْن صغيرتين في حصن أو حائط، فبدتا مفتوحتين على هوّتين لا قرار لهما.

رجوناه بأن يفصّل في كلامه، ليس احتراماً له وإشفاقاً عليه، وإنما لأنه أفسد علينا بشكل نهائي وحسب، مزاجنا الماجن.

وبالرغم عني، شعرتُ ببعض الاهتمام ينشأ في قرارتي، إزاء تلك التأملات الغريبة.

- ارْوِ لنا قصتك، إذاً.

أبرقَت عينا الشاب ببريق لامع، فشعرنا وكأنه بدءاً من تلك اللحظة، كان يقرأ من كتاب محفوظ في صدره:

- عشتُ في قصر بروتوني، أسود وقاتم، يقع على جرفٍ مُشرف على البحر، ومفتوح على أفق لا حدّ له. في ذلك المكان، ظلّ آل لانغينير يتناسلون، ويموتون لقرون خلت. وكانت وحشة المكان الباعثة على الكآبة، تخدّر على الدوام عزائمنا، وتسقي قلوبنا من السمّ الزعاف، بحيث ظلت سلالتنا تنفق لحظات وجودها في اجترار بعض الأمور الميتافيزيقية، التي لا يضع لها غير الموت وحده، حدّها النهائي. لم يساهم هذا المزاج قط، في إفراز رجال استثنائيين سوى في القرن الماضي، حين ظهر علينا أحد الأسلاف، الذي بلغ به القلق مبلغاً صار معه نابغة.

صبّ الشاب لنفسه كأساً من الشراب، كأنما ليتشجّع. ومن غير أن نشعر، فعلنا الشيء نفسه. تزحزح قليلاً فوق أريكته، فبدت عيناه مرة أخرى، وكأنما هما تقرآن في كتاب مستور، ثم واصل حكايته الطويلة:

- وفد ذلك الجدّ من البلاد المنخفضة. وكانت عائلتنا حوالي القرن السابع عشر، قد دخلت بأعداد كثيفة إلى الديانة البروتستانتية؛ لكن ما إن تكاثرت عمليات الاضطهاد التي كان يقوم بها الكاثوليك بشكل كبير، حتى وُجّه الإنذار لأسلافي، كي يختاروا بكيفية نهائية، بين إحدى العقيدتين؛ تظاهر أغلب الأسلاف بالعودة إلى

الكاثوليكية، في نوع من التقية والحذر، ما عدا والديّ غاسبار تحديداً، اللذين عوض التعرّض لمحاكم التفتيش، اختارا الخروج إلى أرض المنفى؛ وأعتقد أنهما بقيا بروتستانيين خالصين، إلى أن وافتهما المنية. هاجرا إذاً، ثم استقرا بهولندا. وهناك، غيّرا اسمهما من لانغينير إلى فان لانغونهيرت، وكسبا ثروة هائلة، وأنجبا ولداً كذلك. إلا أن أخبار أبناء العمومة، الذين فصلت بينهم المسافات والعقيدة، أخذت تتباعد مع توالي الأعوام.

لذا، شدّ ما شعر الفرع البروتوني بمفاجأة كبيرة، حين توصّل حوالي عام 1720، بعد خمسة عشر عاماً من الصمت المطبق بين أفراد العائلتين، برسالة من ابن العم ذاك، الذي لم يسبق لأي أحد من أفراد هذا الفرع العائلي، أن رآه من قبل بتاتاً. وإلى جانب وفاة والديه، أخبرهم في الرسالة أنه عازم عمّا قريب على زيارتهم، وينوي بشكل خاص، الاستقرار النهائي في أرض أجداده.

أدخلت أخبار هذا القريب، الذي قذفتْ به السماء على حين غرة، البهجة إلى قلوب أفراد العائلة. وعُدّ خبر قدومه، إيذاناً بالصفح والمصالحة بين أبناء العائلة الواحدة؛ إلا أنه ينبغي أن نُقرَّ صراحة، أن أفراد الفرع البروتوني، كانوا يأملون إلى جانب ذلك، أن يجلب ذلك القريب الكريم معه، الثروة التي جمعها والداه، لأنّ أسرتنا بدأت تسير منذ وقت، على درب الحاجة الذي بلغته اليوم.

وأخيراً، وصل ابن العم الكريم. وكان الكلّ يقف في انتظاره، على درج المدخل المُفضي إلى البيت.

نزل من العربة التي تجرّها الخيول، فصُدم الجميع بجمال صورته. لقد كان بحسب شهادة بعض الثقاة، من بين أجمل من

حملته أرضُ البشر؛ وإن الصورة التي بقيت لدينا عنه، لتُظهره كبير القامة، وأهيف، وفحلاً مع ذلك، وذا أنف دقيق ينزل في نبالة من أسفل الجبين، ليمتد فوق فمٍ رقيق. شعَر الرجال بالاعتزاز والفخر لمّا رأوه، بينما كاد أن يُغمى على النساء. وهكذا، تمّ تلاقي أفراد العائلة، على وشك الاتصال الحار بينهم وبينه.

إلاّ أنه حدّ من فيض المشاعر الجياشة كلها، بأن لم يُلقِ بأي نظرة في اتجاه الأهل، وما نبس بأي كلمة أخرى، عدا أنه طلب من أول من مدّ يده إليه، كي يسلم عليه، بمرافقته على وجه السرعة إلى غرفته، ليستريح من وعثاء السفر. هبّ الجمع يهرول، كي يقود ابن العم إلى غرفته: هذا يسير إلى جانبه، وهذه ترسل إليه التحية، وذاك يقصّ عليه إحدى الطرائف، وتلك تقذفه بمزحة خفيفة؛ لكن ما من فائدة: لم يسمع أي شيء، ولم يرَ أي أحد من المتحلقين حوله. وحين وصل إلى غرفته، ارتمى على السرير، ونام حتى دون أن يجيل بصره بين أرجاء الغرفة. فتُرك وحيداً.

أُجهِض الفرحُ في مهده، إلا أن أحداً لم يُقرّ بعد بذلك. أخذ الجميع في ترقُّب وقت العشاء، لتستعيد بذلك النساء الأمل، وتأخذ كل واحدة منهن في إضافة الوشاح المناسب، ووضع القرط الملائم، لأن ابن العم كان بجمال مثير للغاية. بعد ذلك اللقاء بثلاث ساعات، أخذ الكل يرثي لحاله، ويُنْزِل باللائمة على الطريق، والمحاور الطرقية، وتغيّر الجو؛ ثم عُلّقَتْ آمال الفرحة بقدومه، ومعانقته، واستحضار الذكريات معه، إلى وقت العشاء.

كانت المائدة تزخر بألوان الطعام، إذ طُبِخَت أربعة أنواع من اللحوم تحسّباً لأي عارض، قد يقع. وأخيراً، نزل السيد غاسبار.

لم يحيِّ أحداً، ولم يفتح فمه إلا للأكل، وذلك ما أقدم عليه بنهم شديد، دون كلمة إطراء على الطعام. وما إن أتمّ اللقمة الأخيرة، وأفرغ في جوفه ما تبقى من كأسه، حتى قاطع حديث جان إيف دو لانغينير، الذي حاول للمرة الألف استدراجه للتحدث معه، ثم غادر دون التلفظ ببنت شفة.

انفجر بركان العداء في الصدور. وكان غضب النساء أكثر احتداداً أيضاً، لأن ابن العم كان فائق الجمال، إلى حدّ أن لامبالاته السافرة، ما كانت إلا لتُشعرهن بالإهانة والإذلال. وقد شك جان إيف دو لانغينير، وهو خائر القوى، في إمكانية أن يحصل على أي مساعدة مالية، من ذلك المغرور. وهكذا انتهت العائلة في نهاية السهرة، إلى التقليب في سيرة أفرادها القدامى، فوجدت لدى بعض أبناء العم الملعونين، السمات التي من شأنها أن تجعل أبناءهم أشدّ مقتاً ودناءة؛ فشك الجميع بجدية، في القبول بمثل ذلك الضيف، في البيت. وعند انتصاف الليل، تقرّر إشعاره بالرحيل، خلال وقت الغذاء.

إلا أن غاسبار في اليوم الموالي، صار إنساناً لطيفاً. طاف يسلِّم على الجميع، مداعباً النساء وممازحاً الرجال، في أناقة وخفّة صفَت لهما القلوب، التي امتلأت من ذي قبل، بالضغينة والحقد. وما إن جلس إلى المائدة، حتى أعلن بأنه لم يسبق أن أكل بكيفية أفضل، إلا ليلة البارحة. حينئذٍ، ظنّ أفراد العائلة أن ابن العم ذو مزاج شاذ، ومتقلب. وقد أبان خلال فترة تناول الطعام كلها، على ما ظلّ يزخر به ذهنه من معارف، وما يطبع سجيته من روح الفكاهة والظرف، اللذين انتهيا إلى استمالة القلوب إليه. وفي الأخير،

تحدث أثناء لحظة تقديم التحلية، عن سنوات باريس التي خصّصها لإنجاز أعمال أدبية كبرى. ثم أمر بأن يُحضَر كتابه، الذي انبهر له الجميع. وهكذا أخذه الكل على أنه فيلسوف، وأنه شخص لا يعيش كما تعيش العامة والدهماء، وأنّ عمق أفكاره يجعله في بعض الأحيان، يفرط في الحلم. لذا، غفر له الجميع، وصفح الكل عن كافة ما صدر عنه.

ثم طُلِب منه أن يتولى أمر تفسير ما في الكتاب، فأوضح أنه يتناول فيه نوعاً حديثاً وحقيقياً - في الآن ذاته - من الميتافيزيقا الجديدة، يبرهن فيه من خلال أربع وعشرين قضية منطقية، بأن العالم لا يملك وجوداً حقيقياً في ذاته، وإنما هو ثمرة لخياله هو، ولرغباته.

صفَّق له الجميع. وردّد الجميع بصوت مرتفع بأنه شاعر، غير أن الجميع أخذ يفكر في قرارة نفسه، أن الرجل مصاب بمسٍّ من الجنون. إلا أن في جنونه بعض ما يتّصف بمظاهر النبوغ، وأنه يبدو مسالماً ولا أذى فيه. قبِل الجميع قبولاً تاماً، بحلوله بين ظهراني العائلة، حين ابتزّ منه جان إيف دو لانغينير أولَ مبلغ مالي، ادّعى أنه في حاجة إليه، كي يقوم بإصلاح سطيحة البيت. وبذلك صار محبوباً من الجميع، دون أن يضطر أي أحد منهم أن يسأل نفسه، المزيد من الأسئلة. وبسرعة فائقة، أدرك الكلّ أنه يكفيك أن تُعطيه الانطباع، بأنك لا تفعل سوى تحقيق بعض رغباته، لتأخذ منه كل ما تريد. وقد صار جان إيف دو لانغينير خبيراً في فنّ التلاعب به، إذ بعد أن ساهمت المبالغ المالية الأولى، التي حصل عليها من ابن العم غاسبار، في استعادة العائلة لوضعها السليم، انكبّ ينفق من جديد،

على لعبة القمار التي ظلّ يهواها، منذ أيام الشباب. وهكذا، نظمت المصلحة الفردية التي يدركها كل فرد، طبيعة العلاقة بين جميع أفراد العائلة، فغدت الحياة منذ ذلك الحين، وديعة وعذبة.

وحده جدّي، الذي كان لا يزال فتى يافعاً ذلك الوقت، والذي أخذت عنه تفاصيل هذه الحكاية، التي أروي اليوم، هو مَن انشدّ انشداداً عاطفياً خالصاً نحو غاسبار، الذي تكشّف أنه ذو ثقافة عالية، وأن حديثه - إذا ما استثنينا ادّعاءه تأليف كل الكتب التي يقرأها - هو حديث مليء بالحكمة والمعرفة. إذ بفضله، تعرّف جدي على الأوديسا، والإنجيل، ودون كيشوت، وديكارت، واكتسب معرفة ولو سطحية بالفلسفة الإنجليزية، وهو الأمر الذي ظلّ نادر الحدوث، في الأرياف. لماذا أخذ الفيلسوف الغريب، الذي ظلّ يعتقد نفسه الموجود الأوحد في هذا العالم، في تضييع وقته بتعليم فتى في الخامسة عشرة من عمره؟ كان يقرّ بأنها كانت بالنسبة إليه، الفرصة المناسبة لمراجعة معارفه.

لكنه لم يكتفِ بتدريب جدي الصغير، على طلب المتعة الروحية فقط، وإنما شرّع الأبواب المحظورة أمامه، لطلب المتع الجسدية كذلك. فقد كان يألف حياة المواخير، وظلّ الحب عنده، بدل أن يكون لحمة تؤلّف بين الأرواح، مجرّد ممارسة حسّية لا تقيم اعتباراً للرسوخ العاطفي، لأن لذة مَن يعاشرها، لا تهمّه. لذا، كان يفضّل التردّد على المحترفات. وهكذا، عبرت به فلسفته الأنانية، عتبة المجون.

* * *

بقي هناك بين أفراد العائلة، مدة عام. وبدا أن حياته وُعِدتْ

بتكرار اللذائذ والمتع نفسها، لولا أن توافدت فرقة من الغجر البوهيميين. وكان هؤلاء يحلّون بمدينة سانْ مالو مرة كل عامين، يقضون فيها وقتاً لا يُستهان به، وهم يقدمون بعض الألعاب، ويرقصون، ويقرؤون الطالع، ويرتكبون بعض أعمال الاختلاس والسرقة.

عندما خرج غاسبار من بين أحضان مومس شقراء جميلة، مرق إلى ساحة الأبرشية، وهناك اكتشف حلقات فنون الفرجة، التي يقدّمها الغجر. بعضهم يقذف بأشياء في الهواء، ثم يلتقطها بحركات بهلوانية فنية، وبعضهم يُدير عجلة الحظ، وبعضهم الآخر يغني بصوت أجشّ أغاني قديمة وغريبة؛ وبين هؤلاء وأولئك، ومَن تحلّق حولهم، تتمسّك شابات سمراوات ذوات تنانير مزركشة، بتلابيب السابلة لقراءة الطالع، والتنبؤ بالغيب.

شكر غاسبار نفسَه، على هذه المفاجأة السارة التي صنعها هو لذاته، وِفْق المنطق الغريب الذي يُميّزه، وأثنى على نفسه بعبارات الإطراء، التي تُشيد بقدرته الخارقة على الخلق المدهش، ثم اقترب في شرود ذهني، من جماعة ميسورة كانت تكوّن دائرة تتحلق حولها، وتُخفي بأجسادها فرجة ما مهمة.

كانت ثمة غجرية طويلة بقوام رشيق، تدور على نفسها، وتدور، أمام أعين الرجال المندهشة. بشَرَتها كانت من جمر، وعيناها من نار، وكلها ذات جمال فاتن. لقد بدت مثل شُعلة ترقص تحت عري السماء. وكان رفيقها الغريب، وهو جرو رمادي اللون، يؤدي في الأرض حركات بهلوانية، قافزاً تارة فوق كعبيها، ومتدحرجاً تارة أخرى بين قدميها، إلا أن ما من أحد انشدَّ إلى ذلك الحيوان، وإنما

ظلَّت عيون القوم تتابع حركات تلك الغجرية، ذات الربلتين البارزتين، والرجلين السمراوتين والأصيلتين وسريعتي الحركة. وبحركة عنيفة من يديها، أمسكتْ كمن كان تحت تأثير مسٍّ ما، بالقسم الخارجي والداخلي من تنورتها، ثم دعكته، وضغطت عليه بقوة، حتى بدت وكأنما هي تقاوم قوة ما، ظالمة وقوية وغير مرئية، باتت تحرق جسمها كله؛ ثم شرعت تضرب أديم الأرض بقدميها الحافيتين، وأخذ جسمها في الانتصاب، مع كل ضربة من ضرباتها، وكأنما كانت تريد أن تطرح تلك الآلام المبرحة، التي سكنت دخيلتها، أرضاً. حينها، رفعت ذراعيها، وعلا نقرها على الطرّ، ثم شرع رأسها يتحرك، ويدور من جهة إلى أخرى، بينما خصلات شعرها المخبل تغطي وجهها. ودون أن تنظر في اتجاه أي إنسان، ولا في اتجاه أي شيء، شرعت تتضرع إلى السماء، وعيناها منخطفتان في طقس غِشْية وانجذاب صوفي. ظهر من تحت إبطيها، شعر كثيف فاحم ولامع، خجلت النسوة من رؤيته، بينما استثار رغبة الرجال، فزادت غشيتها الطقسية في الإيحاء بأشياء أخرى شهوانية، إذ إنها كانت بتلك الوضعية، تكشف عن جسد عارٍ، من لحم وشَعر وعَرَق، عن جسد دبق وجموح، ما خلق إلا لمتعة الحب.

أخذها الانخطاف بفعل تواصل الرقص، فظلَّت تدور، وتدور؛ وأخذ الكلب الذي بلغ به الإنهاك مبلغاً شديداً، ينظر إليها وهو مبهور؛ وشرعت الحناجر هي الأخرى تضيق، وتختنق، في حين بقيت الغجرية تدور حول نفسها، وهي ذاهلة عن الكلّ. ثم إذا بها تنكسر على نفسها بغتة، وتضع رأسها بين الفخذين، بينما شعر رأسها يلامس التراب. بقيت على تلك الحال، ساكنة لا تتحرك، للحظة.

ثم انتصبت واقفة ببطء، وحيّت الجماهير المتحلّقة حولها، بحركة نبيلة. بعد ذلك، صارت امرأة أخرى تتميز بالهدوء والتعالي، ولا تبدو عليها أي علامة تنمّ عن اللهاث، ولا الجهد، ولا التعب؛ حينئذٍ، ارتفع تصفيق خجول، ما فتئ أن عكّر صفو الصمت، الذي كان قد خيّم على رؤوس المتحلقين.

ومن غير تفكير ولا تردُّد، تخطّى غاسبار الشريط الذي وضعته تلك الغجرية، لتحدِّد به حوزتها، فأمسكها بين يديه، وهمس في أذنها قائلاً:

- تعالي معي، فأنا أريدك.

تخلّصت من قبضته بحركة خاطفة، ثم انطلقت بكل هدوء تدور حول المتحلقين، وتجمع بآلة الطرّ الصدقات منهم. وحين مضت من أمامه مرة أخرى، مدّ لها صرّة مليئة بالذهب، أخذتها، وأخرجت منها قطعة واحدة، ثم أعادتها إليه.

اقترب منها من جديد، وكرَّر على مسمعها في همس:

- تعالي معي، فأنا أريدك.

دنَت منه، وشرعت تتفرَّس فيه؛ نظرت إلى فمه الذي كان جميلاً، وإلى شعر رأسه الذي كان فاحماً وغامقاً، وإلى حاجبيه الدقيقين، وإلى عنقه المصفر والسميك، ثم عادت تنظر مجدّداً إلى عينيه، وقبل أن يملك الوقت الكافي للفهم، هوَت على خده بصفعة قوية.

بقي متسمّراً في موضعه، وهو جامدٌ من الذهول. ضحكت، فآلمه ذلك منها. وحين استعاد وعيه، لم يرَ منها سوى تنورة اختفت عند زاوية أحد البيوت، وجرو كان يجري خلفها، في نشوة عالية.

عندئذٍ، صار غاسبار عاشقاً. مشى يذرع المدينة لساعات وساعات، إلا أنّ ذهنه ما كان يفكر طوال النهار، سوى في تلك الغجرية. إن مدينة سان مالو لتصبح أدعى مكاناً للحزن والكآبة، حين يُصاب المرءُ بين ربوعه بالحب، ولا يجد فيه من يبادله ذلك الشعور.

في اليوم الموالي، عاد إلى ساحة الأبرشية، وكانت هي لا تزال ترقص. شعر نحوها بانجذاب كبير. ولمّا طافت بالطرّ على المتحلقين من حولها، لم يعْطِها أي شيء. مكث واقفاً يتأملها وحسب، حتى بعد أن انحلّ عنها الجمع. عندئذٍ، دنت منه، وصفعته.

وفي الحال، أدرك أن ذلك هو ما بات ينتظره، منذ ليلة أمس.

وهكذا عاد مرة أخرى، في اليوم الموالي. إلا أنها لم تكن في المكان المعتاد. ظلّ ينتظر مجيئها، دون أن يفهم أي شيء. ماذا يكون جرى لها؟ أفَقَد قدرته على جعلها تظهر، وفق مشيئته؟ ينبغي عليه إذاً، أن يركّز من طاقة خلقه، بكيفية مكثفة...

وعلى حين غرة، غادر الساحة، وخرج بعيداً عن المدينة، ليسير بين الحقول المتاخمة. لم يستطِع الهواء المنعش، أن ينزع عنه ذلك الشعور بالضغط، الذي ظلّ يكبس على صدغيه، بشكل حارق. وإذا بقدميه تقودانه إلى سانت أمبروز، ليلِجَ كمن أرغِم على الدخول، إلى مصلى كنسي دائري الشكل، كان يقع تحت سماء وحشية زرقاء، بعيداً فوق إحدى الهضاب.

ولأول مرة، صلّى وتضرّع إلى الرّب، دون أن ينتبه حقيقة، إلى ما كان يقوم به. اعترف بالخالق، ووجّه إليه صلاة طويلة وضارعة،

اشتكى فيها من لوعة التّرك والفقد واليأس؛ ولأول مرة كذلك، أحسّ بقزميته وتناهيه ومحدودية قدرته، فالتمس العون والسند من الرّب، مثله مثل آلاف الوضيعين والخطّائين من بني البشر، الذين يملأون أرض لابْروتون.

تُرى، كم من الوقت قضى في الصلاة؟ وهل سمعه أحد؟

حين فتح عينيه، والتفت صوب الصفّ المجاور، رأى تلك الغجرية ذات العينين السوداوين، جالسة على ركبتيها، وهي غارقة في صلاة خاشعة.

استعاد قدرته، إذاً.

قامت واقفة على قدميها، وابتسمت له. ثم خرجا من المصلى، في سكينة ووئام.

جلست على الصخر، تواجه البحر، فجاء للجلوس بجوارها. بقيا شاخصين، يحدّقان معاً في تلاعب الموج والريح، وما ينجم عنه من التفاف مائي لا ينتهي. أما الرياح فظلّت حولهما تصوّت، وتملأ الدنيا بالصفير.

- امنحني يدك، قالت. سأقرأ طالعك.

فتحت كفّه بلطف ووداعة، وركّزت بصرَها طويلاً، على خطوط راحته. ثم إذا برعشة مباغتة تغشاها، وبلونها يشحب، وبتنفسها ينقطع. تركت يده بشكل مباغت، وانشغلت تتأمل بكل جوارحها، في الأفق البعيد الممتد أمام ناظريها.

- ستموت عمّا قريب.

قالت ذلك بطريقة هادئة، إلا أنه لم يستوعب معنى كلامها، لشدّة فرحه لرؤيتها قريبة منه، وابتهاجه لسماعها تتحدث إليه.

حينها، عادت تكرِّر على مسمعه، ببطء:

- ستموت عما قريب.

حين أدرك معنى كلامها، ضحك. جلجل بضحكة قوية وطويلة، حتى شعر على إثرها ببعض التعب في الحلق. لقد نظر إليها بإشفاق، كما ينظر الخالق إلى إحدى مخلوقاته، التي تخبِره بأنه سيموت. كان ذلك أمراً مفرط الغرابة. ومع ذلك، شعر حين كان يضحك، بقشعريرة تسري سريان الثلج في عموده الفقري؛ وكان الهواء البارد قد اخترق ملابسه، وأحسّ بالجوع والبرد والتعب، وشعر أنه هشّ كذلك، وقابل للعطب. ثم أحس بدوار في الرأس. إلا أن يداً ما، ما لبثت أن أمسكت به.

- أنت ستموت، لكني أنا كذلك سأموت، إنما قبلك.

ضمّته إليها بقوة، وكأنما كان ذلك عن حبّ، بينما ظلت عيناها تلمعان ببريق حاقد.

استردّ غاسبار ملكاته الذهنية.

- كلا، لن تموتي. إن شئتُ أنا، لن تموتي أبداً.

أراد أن يشرح لها أنه أصلُ العالم، وأن كل الأشياء والكائنات إنما هي تحت رحمته، وأنه هو في نهاية المطاف، من يقرِّر بمفرده في مصير الموجودات، إلا أنه لم يستأنس في قرارة نفسه، الشجاعة اللازمة لشرح ذلك، فبقي خجولاً بشكل غير واضح.

- قد يتطلب شرح ذلك كلاماً طويلاً، قال بكيفية مفعمة بالرخاوة.

نظرت إليه للحظة، وكأنها تتشبّع بالأمل، ثم عادت من جديد كئيبة.

استأنفت تقول، وهي تتمسك برأيها.

- لا مهرب من المكتوب.

- لكن أين قرأت ذلك مكتوباً؟

- في راحة يدك. في راحة يدك.

نظر غاسبار إلى راحته، فتحولت فجأة إلى شيء فظيع. لم تعد يده أبداً، تلك التي رأى، وإنما عنكبوتاً ضخمة من لحم ودم، لها بشرة محمرة من شدة البرد، وقد كساها زغب غير منتظم؛ فبدت له مقرفة وبذيئة. أغمض جفنيه الثقيلين، وهو مرتجف ومنهك، ثم إذا بحرارة تغزو جسمه، دفعة واحدة.

ألصقت الغجرية فمها بفمه، فاتحد لساناهما؛ ثم ألقت به على الأرض، واستعلته، ونامت بكل ثقلها، فوقه. حينها، شعر بالأرض تنزاح عنه.

وإذا به يحسّ مرة أخرى، بنفحة البرد. حينها، فتح عينيه، غير أن الغجرية كانت قد غادرت، وأخذت تجري بعيداً على الشاطئ.

- إلى أين تذهبين؟ صرخ وراءها.

لم تُجِبه، وإنما وَدّعته بإشارة من يدها، لما التفتت ناحيته.

- متى سنلتقي؟

كان يصيح خلفها.

هزّتْ كتفيها، وأشارت إلى السماء.

- لنضربْ موعداً للقاء، أرجوك. لا ينبغي ترك هذا للصدفة...

- لا وجود للصدفة...

- بالطبع، لا وجود للصدفة!...

ثم هرولت بسرعة كبيرة، إلى أن اختفت بين الصخر.

* * *

مضت ثلاثة أيام على ذلك. ثلاثة أيام لم يظهر فيها للغجرية أثر. ثلاثة أيام بدّلت أحوال غاسبار، مرة واحدة وإلى الأبد.

خلال ثلاثة أيام، ظلّ يبحث عنها من غير أن يعثر عليها؛ خلال ثلاثة أيام، ذاق من القلق النفسي، ومن الأمل والانهيار والتمرّد والغضب والانتقام، ألواناً ملونة. والشيء الجديد أيضاً، هو شعوره عند مَتمِّ الأيام الثلاثة، برغبة في وضع حدّ لحياته، لأنه إلى جانب آلام العاشق الممضة، عانى من آلام أخرى انضافت إلى الأولى، هي آلام الفيلسوف الذي فُنّد فكره، وبدا صرحه النظري متهافتاً... وصار بذلك ينشد الموت، باعتباره خلاصاً.

لذا، لم يعد هو ذلك الإنسان نفسه الذي كان، حين وقف أمام البوهيمية، بعد تلك الأيام الثلاثة من الغياب، التي فرضتها عليه فرضاً، من دون شك.

مع لحظة الشفق، عثر عليها في الساحة، التي صارت خالية من الناس. وهناك، رقصتْ له لفترة طويلة؛ وكان هو بالكاد يراها وسط العتمة، التي انتشرت مع حلول الليل، ويسمع تنفسها، ويحتكّ قماش تنورتها بخدّه، في بعض الأحايين؛ وحين أقفلت رقصتها بالتحية المعهودة، أمسكها من ذراعيها، ودفعها أمامه. صعدا معاً إلى الحجرة الصغيرة الواقعة تحت سقف بناية الفندق، وهي الحجرة التي كان غاسبار قد اكتراها، واتحد جسداهما أخيراً، هناك.

كانت الليلة طويلة وصاخبة. بات أثناءها غاسبار موضوعاً للمتعة، أكثر ممّا كان المستمتع بها، لأن الغجرية حتى وإن أمسَت

تحته، ظلّت تعتصره اعتصاراً، وتنتزع منه متعتها الجنسية انتزاعاً، مثلما يعتصر خليل شبق خليلته، وينتزع منها لذّته: فقد كانت تشترط عليه، وتمانع، وتحصل على بغيتها. أما غاسبار، ذلك الحكيم الذي ألف المواخير والمومسات المطيعات والخاضعات لرغبته، ولم يتصوّر قط بأنّ يده قد تلتقي بجسد الآخر، وبأن قضيبه قد يجلب اللذة للغير؛ فإنه مارس للمرة الأولى، الجنس.

وفي الأخير، لمّا استنفدا كلّ المتع الشهوانية الممكنة، أزاحته عنها بركلة من رجلها، واستسلمت للنوم، وحيدة وهادئة ومطمئنة وفرحة، وقد تمدّدت وسط السرير. استراح جسدها فوق السرير عارياً، ومتموجاً بفعل العتمة، لا يضيء منه القمر غير الردفين والكتفين. وقف غاسبار، وفتح النافذة؛ كانت الغرفة تفوح برائحة الجنس، وهي رائحة مشبعة بخليط من متعة الذكَر الباهتة، ومن رائحة الليمون والمسك، التي تفوح من الأنثى. استمر ينظر إليها. كان تنفسها عميقاً وشهوانياً، ولربما قال جميع من رآها، وهي على تلك الحال، بأن الهواء الذي ينفذ إلى جسمها، يدفئها، ويتلمّس في هدوء تام دواخلها، عضواً فعضواً، إلى أن تلفظه في الأخير، بعيداً عنها. إنها مثلما راح يفكّر، تجسيدٌ للنُبل الحيواني؛ ذلك النبل الطبيعي الذي يكشف عنه اتساق الأعضاء، بكيفية رفيعة؛ إنه لجسد يُكوّن في مجموعه كلاً واحداً متناسقاً، وليس اجتماعاً لعناصر متنافرة بشكل سوقي: فالنهدان جميلان، والأرداف جميلة، والوجه جميل... ليس هنا شيء يتطلّب اجتزاءه، وفصله عن المجموعة المتناسقة؛ أو بالأحرى، قد يكون من الخطأ الإقدام على عملية الفصل والاجتزاء تلك. أصاخ السمع إلى تنفسها المنتظم، وإلى هشاشة الحياة التي

تسكنها؛ وأدرك أن بمقدوره بالليل، أن يُلحق بها - لمئات المرات - الضرر، بالنظر لقوته الذكورية؛ ثم تذكّر في نوع من الالتذاذ، أنه كاد لثلاث مرات أن يخنقها، أثناء فورتهما الجنسية، بتأثير من اللذة. أحسّ حيالها بالرأفة، فأراد أن يطبع على جبينها قبلة؛ إلا أن تذمّراً عدوانياً ما لبث أنْ حال بينه، وبين تحقيق ذلك.

سار في اتجاه النافذة، فتوقف الشارع لأول مرة في حياته، عن الظهور له كمجرد ديكور؛ رأى فسقية الماء التي يقطر صنبورها، والحائط المتآكل الذي يقع أمامه، والعلامة المصنوعة من الأعواد المصبوغة التي تميل بشكل خطير، ورأى البلاط اللامع تحت ضوء المصباح اليتيم في الشارع. كل هذا بدا له ينبض بحياة خاصة، وساوره الاعتقاد بأن الحجر يقرقر بدوره، وبأن الجبص الذي يتكئ عليه هو الآخر، يمتلك نفساً خاصاً. ثم غطت سحابة ضوء القمر، فلم يعد يتبين من ذلك أي شيء.

ألقى بنفسه وسط الحجرة، خائفاً ومتقززاً، ثم تمدَّد بالقرب من الجسد النائم، الذي كان يغطّ في النوم.

لأسبوع كامل، ظلا يمارسان الجنس كل ليلة.

وعوض أن يأنس غاسبار للغجرية، ظلّ يجدها في كل مرة، أشدّ غرابة واختلافاً، فصار يحبها أكثر فأكثر؛ وبقيت متعتهما الجسدية أقوى، وعناقهما أعنف؛ وظلت هي تزيحه عنها دائماً، وتخلد لنوم أناني وشبعان؛ بينما ظلّ هو دائماً، ينظر إليها وهي نائمة، في خوف ورأفة، سابراً أعماق سعادتهما ووجودهما الهشين.

بفضل تلك الغجرية، تغيَّر العالم كله: صار للشمس مطلق الصلاحية، بأن تضيء أو لا تضيء، وبأن تشرق أو تغرب، باعتبارها

سيدة مصيرها؛ وصار للعشب أن ينبت بغير انتظام، وكيفما اتفق؛ وصار للورد أن يذبل؛ وللناس أن تصيح، أو تبتسم. كل شيء صار منذ ذلك العهد، فريدَ نوعه؛ وما عاد غاسبار سوى مجرد مشاهد، يندهش لما يجري في العالم حوله، ويعجب له. لقد غدا شيئاً فشيئاً، يتعلم.

كل صرح فلسفته انهار بين أحضان تلك الغجرية، إلا أنه لم يكترث على الإطلاق لذلك، مع علمه به، لأنه ظلّ مسروراً. لقد طفق يولد...

* * *

حينها، اختفت الغجرية من جديد.

لم يصدّق غاسبار ما جرى له، فاندفع يبحث عنها لأيام وليال، في كل مكان؛ طاف أطراف المدينة والضاحية، يستقصي أخبارها؛ بل إن التدنّي بلغ به مبلغاً عظيماً، حدّ أنه استفسر عنها الغجر، وهم بعض الألعُبانيّين بزوجات مسّنات لهن أفواه درداء، وصل إليهم باتفاق مع صبية نشالة؛ وسألهم عمّا إذا كانت الغجرية مريضة، أو تعاني من شيء ما؛ ضحك منه هؤلاء أول الأمر، إلا أنهم نحّوه عنهم بعد ذلك، في ازدراء. إنها لا تزال على قيد الحياة، إلا أنها لم تعُد ترغب في رؤيته، على الإطلاق.

تجرّع مرارة الخيانة. إنّ ذلك العالم الذي أهدته له الغجرية، وهو ذلك العالم الذي ظلّ إلى تلك اللحظة يحتفي بجماله، صار الآن يفزعه؛ إذ بعد أن كان غريباً عنه، صار بالنسبة إليه عدوانياً. لذا، أخذ غاسبار يخاف من الكلاب. كما غدا السير الطويل الذي ظلّ يتكرر عنده كل يوم، أملاً في العثور عليها، يُتعبه. لقد فتح عينيه

على ذلك الواقع، فأدرك أنه لم يكن يعتبره الآخرون، سوى واحد من فصيلة البشر، وأن مجموعة من الصفات التي لا تحصى، قد أُطْلِقَت عليه، ومن غير أن يشاء ولا أن يقدّر، صار ينتمي إلى دَفق أوعاء هؤلاء؛ إذ ظلّ بالنسبة إلى الغجر رومياً، وبالنسبة إلى التجار غنياً، وإلى الأقارب مجنوناً. حينها، شعر بتلك الوحدة التي هي موطن البشر، لا تلك الوحدة المستقلة والكافية للوعي بالمرة، والتي يعتقد أنه كان يحياها، وإنما هي وحدة المرء وسط الخلائق والأشياء، وحدة بلا معين، وبلا إمكانية للتدارك، أو المعالجة: إنها وحدة الإنسان.

وفي ليلة الخامس من شهر آب/ أغسطس، انفجرت في الجو عاصفة عظيمة. ثم باتت الزوابع تقصم ظهر الموج المرتطم في زمجرة، على الشاطئ الصخري، بينما الرياح تعصف بالبيوت من غير شفقة، حدّ الصراخ والأنين؛ أمّا المطر الطوفاني الغزير، بحبّاته الضخمة، فقد حكم على البشر بالبقاء محبوسين رهن بيوتهم، إلى أجل غير مسمى. باتت النساء تقمن الصلاة، من أجل أن ينجو البحارة الذين بقوا في البحر، في حين كان الأطفال يبكون. وحتى في القصر نفسه، فإن الجميع عاش ليلة طويلة من الانتظار والسهر، تضامناً مع هؤلاء البحارة، الذين باتوا ليلتهم يصارعون الموت المحقّق. وهكذا، عمد الأقارب أثناء تلك الليلة الساهرة، إلى مخاتلة النوم بالتعاطي للعب، والقراءة، وتجاذب أطراف الحديث، الذي وإن كان يُستنفذ، فإنه ما يلبث أن يتجدد على الدوام؛ ولا شيء كان يستغرق أكثر من عشر دقائق، إلا أن تلك كانت أفضل طريقة لمواجهة الخوف الخالص.

وكانت الغجرية قد اختفت قبل أسبوع، على حدوث ذلك.

تُرى، ماذا كان يفعل غاسبار وسط ذلك الليل البهيم، وهو ضائع وسط عناصر الطبيعة الهائجة؟ أكان يهيم كعادته، وسط المدينة وأطراف الضاحية؟ أمَضَى إلى الماخور، وارتمى بين أحضان تلك المومس الثخينة الشقراء؟ أعَثَر على الغجرية؟

يبقى أنه ما عاد إلى القصر، إلا مع حلول الساعات الأولى من الصباح، وكان زائغ النظرات، ملطخاً بالقذارة والأوساخ، وبملابس صارت مجرّد مزق وأسمال، حتى لقد صار من الصعب على المرء، أن يتعرّف عليه بسهولة، بل حتى الخدم الذين استيقظوا قبل ذلك الوقت المبكر، وأشعلوا النار في المطبخ، خافوا منه، وترددوا في التعرّف عليه. أما هو فاكتفى بصعود السلالم، والارتماء على سريره، والنوم، دون أن ينبس ولو بكلمة واحدة.

لم ينزل غاسبار إلا أثناء وقت الغذاء، وكان نظيفاً وبملابس نقية وجديدة، غير أن نظرته ظلت فارغة، وفمه منقبضاً. روى جان إيف في تلك الأثناء، آخر ما استجد من الأخبار في المدينة: بقي زورقان لم يلتحقا بالميناء بعد، أما السفن والمراكب الأخرى التي كانت في أعالي البحار، فلن يُعرَف مصيرها، إلا بعد مضي أسابيع. بعد ذلك، أعلن بصوت شديدة الخفوت، عن رحيل البوهيميين أخيراً عن المدينة، وبأنه عُثِرَ على اثنين منهم هذا الصباح، جثة هامدة، بالقرب من الشاطئ. رأس الرجل شُجّت بحجر، بينما عُثِر على الفتاة مخنوقة. من المؤكد أن المسألة فيها تصفية للحساب بين الغجر، بسبب الغيرة، لأن الفتاة بحسب ما رُوي لجان إيف، كانت شديدة الجمال. لقد تناقصت حشرة، أو هما حشرتان، من الحساب،

أردف جان إيف قائلاً. تلك هي حال هؤلاء، دائماً.

حانت من جدي - الذي كان على علم بقصة حبّ غاسبار للغجرية - نظرة سريعة، صوب ابن عمه. إلا أن المرء بالطبع، ما كان منه إلا أن يشك في أن الرجل كان بعيداً كلّ البُعد عمّا كان يُقال، ما دام أنه ظلّ يبدو متقوقعاً على نفسه ومنقبضاً، وحسب. ثم إذا بجان إيف لانغينير يسأله، في هدوء:

- ألمْ تروا شيئاً، يا ابن عمي، من شأنه أن يُقدّم بعض التوضيحات حول القاتل، ما دمتم خرجتم هذه الليلة؟ ألم تكونوا تتجولون بالقرب من الشاطئ؟

تفرّس فيه غاسبار بدهشة، ثم انفجر بضحكة مجلجلة، وكانت ضحكة شيطان يرتسم فيها ما يشبه الفرح اللئيم...

وفي اليوم الموالي، أشعر غاسبار العائلة بعزمه على الانكباب من جديد، على التأليف والكتابة. ولهذه الغاية، اقترح أن يقيم في العلية، محاطاً بالكتب والأوراق والمداد؛ وقد أشار إلى قصده في عدم إضاعة الوقت الثمين، في النزول لتناول وجبات الطعام مع العائلة؛ فتقرر أن يأتيه الطعام إذاً، حيث يقيم.

وقد تعوّدنا على وضع إناء الطعام، أمام باب حجرته. وهكذا، ظل الفيلسوف الأخرق يعيش في علية البيت، ويكتب إلى آخر أيامه.

صمت مساعد الموثّق الشاب عن الكلام. لقد فرغ من قصته. ثم رمى بعظمة في النار، بكيفية حزينة.

- كانت هذه أيها السادة، قصة سلفي. لكن، يبدو أنه صمد بشكل يثير الفضول لموته الفيزيقي، وبقي حياً بيننا. لقد ظلّت أفكاره القاتمة تعشّش بين زوايا القصر، وبقيت شكوكه تلتصق بالحيطان

والستائر، وتذرع الممرات والأروقة جيئة وذهاباً، وتملأ أرواحنا.
عادت وضعيتنا المادية إلى سابق عهدها، فهجرنا الخدم، واضطررنا إلى التقهقر، حدّ القبول بأعباء العمل في الحقول.

بين تلك الحيطان الباردة، وفي ذلك المنظر المقفر، ووسط هذه الحياة الكادّة والكئيبة، اكتسبت كلمات ذلك السلف المودعة متن كتابه، ثقلاً لم يكن قد عُهِد فيها، بالمرة. كنّا جميعاً نشك في أنّ الحياة، ليست شيئاً آخر سوى مجرد أحلام، مجرد أحلام تعيسة بالضبط، لأنّا لن نستطيع أن نجتاز الحياة، إلا من ذلك النسيج من الآلام، والمحن...

سكت، وانغلق على دائرة حزنه. لم نتجرأ على النظر إليه. لقد سحرتنا قصته بالفعل، إلا أنها تركتنا في ضيق وانزعاج. ودّعنا بعضنا بعضاً فجأة، إذ لم يبقَ لنا ببداهة، من مزاج رائق لإكمال السهرة سوية.

استبدّ بي غيظٌ شديد. إذ بعد ذلك الأمل الكبير الذي خامرني، بفعل ما توقّعته من عون لا يُستهان به، من تلك الوثيقة التي أوصلتني الصدفة إليها بشكل ملغز، ماذا كانت النتيجة؟ مجرد هذيانات دوّنها كاتب مبتدئ من الضاحية، ينتمي إلى نهاية القرن التاسع عشر، بها خليط من الرومانسية والواقعية، وليس بها أي بحث تاريخي جادّ، ولا أي تأمّل فلسفي منسجم انسجاماً منطقياً، بالمرة. وإنما كانت مجرد خيال رديء، وحسب! لم أستفد من أي شيء يُذكَر منها، فتميّزتُ غيظاً.

ومع ذلك، كانت ثمة إشارة إلى وجهة معينة، كان ينبغي لي اتّباعها. إذ كيف استطاع ذلك المدعو أميدي شامبوليون، اكتشاف غاسبار لانغونهيرت؟ إنه لم يخلقه. من المؤكد أن يكون عَلِم بوجوده في الهافر، بطريقة مختلفة بالضرورة عن الطرق التي اعتمدتها أنا، إذ سبق أن عاش هناك. فهل يكون غاسبار حلّ حقاً، بأرض أسلافه القدامى ليعيش، ويموت هناك؟ إذا ثبت هذا، فمن شأنه أن يُفسِّر تلك الكيفية، التي استطاع بها شامبوليون بمحض الصدفة، أن يجمع بعض الشهادات من أفراد عائلة غاسبار، أو أن يفسّر كيف استطاع

الاعتماد على بعض الوثائق الخاصة، في أرشيف العائلة. فهل لا تزال تلك الوثائق موجودة، بين أيدي الورثة؟

ساهمتْ هذه الفكرة بشكل فوري، في إقصاء غضبي. وسرعان ما شعرتُ في قرارتي، بانبعاث الأمل من جديد، في أعماقي.

أعدتُ مخطوطة شامبوليون، وأنا أجشّمُ نفسي مع ذلك، مشقة التماس استنساخها. حاول الرجل القصير الأصلع، ذو النظارات السميكة والمستديرة، أن يتصرف معي بعجرفة وادِّعاء، لمجرد أن يُظهِر أهميته وحسب، ويضيّع المزيد من الوقت، قبل أن ينتهي إلى الإذعان لطلبي. ثم سعيتُ في انتظار إنجازه ذلك، إلى الحصول على بعض المعلومات بشأن شامبوليون، لمجرد إشغال نفسي فقط، لا بدافع اهتمام حقيقي بالموضوع؛ إلا أني لم أجِدْ شيئاً يذكر من ذلك، إما بسبب أن الرجل لم يكتب أي شيء آخر، عدا مخطوطته سالفة الذكر، أو لأن الوثائق قد تعرضت هاهنا للغارات الحربية، فلحق بها الدمار والتلف. بعد ذلك، خرجتُ من أرشيف البلدية، لأسير مهرولاً صوب البريد المركزي.

فَحَصْتُ فهرست المنخرطين في شبكة الهاتف بمنطقة لا بروتون، ثم المنخرطين بالنورماند، وانتهيتُ إلى العثور على أحد هؤلاء في مدينة شيربورغ، يسمى لانغينير. لا يزال لغاسبار إذاً، خلَفٌ ينحدر من أسرته! ندمتُ لكوني لم أفكّر من قبل في هذا الأمر، لكن لم يدُم ندمي غير وقت وجيز، لأني كنتُ في غاية من الابتهاج.

وعلى وجه السرعة، اتصلت في التلفون، فإذا بصوت رجل شاب مسجّل على جهاز الردّ الأتوماتيكي، يطلب مني الاتصال برقم آخر، هو تلفون مقرّ العمل. وحين ركّبْتُ الرقم الجديد، فهمتُ من

محدثي أن المقرّ نادٍ رياضي، وأنه يلزمني أخذ موعد مسبق مع جان لو دو لانغينير. حدّدتُ صبيحة اليوم الموالي موعداً للزيارة، ثم قفلتُ أدراجي باتجاه محطة القطار...

يشغل نادي فيتانوكسيفورميدابل الرياضي، عمارة بكاملها تقع وسط المدينة، بحيث لا يمكن للعين أن لا تلتقطها، لأن رسوم العدائين والملاكمين أو رماة الجلة، تحتل الأرصفة المجاورة، مرفقة بسهم. ولجتُ النادي. ثمة فروة شعر مصبوغة على الجدران، وبساط من النيلون الأخضر على الأرضية، في حين كان السقف مصبوغاً بالأزرق، بينما وزّعت هنا وهناك، نباتات بلاستيكية لامعة؛ كان كل شيء قد أعِدّ سلفاً، ليوحي بالطبيعة. وبدت رؤوس العاملين والعاملات تراجيدية، على شكل تلك الرؤوس التي تُعلّق بحجم ضخم في العادة، على صفائح الإشهار بالمدن الكبرى: وجوه مشعة بالعافية، باسمة، وبرونزية، وبارزة بشكل جيد، تمجّد فكرة مخيفة عن السعادة، يعدُّ الجسد فيها هو كل شيء، بينما الشيخوخة تعتبر في عداد الكوابيس.

ولأصِلَ إلى مكتب المدير، فُرض عليّ المرورُ بقاعات تقوية العضلات. لقد كان بمستطاع تلك الأدوات العقابية كلها، وجميع تلك الخردة الحديدية الثقيلة، التي تَتركُ بالكاد مكاناً للجسد، الذي يرشح بالعرق، وهو يصطلي بالعذاب بينها، أن تُشِعّ بسحر خادع، مثلما هيئ لي، وأن تستثير شياطين من لحم ودم. لكن هذا ظلّ بعيداً. إذ بقي النيكلِ ملكاً، والحُشيّة المصنوعة من السكاي رعيته. وقد اعتقلت الأمكنة جميع من ضمّته إليها: إذ بدت النساء - أو على الأقل ما بات يسمى كذلك - يابسات، بعظام بارزة، لا نهود ولا

أرداف تميزهن، وبسحنة سمراء قاتمة تشبه سحنة البحّارة الطاعنين في السنّ، اكتُسِبْنها - من دون شك - بثمن غالٍ، في حجرات تلويح البشرة، بينما يرتدين مباشرة، فوق الجسد الذي لم يعد محطّ رغبة، لشدة ما صار رياضياً، قمصاناً مشعّة كان من الأولى رؤيتها على الألواح، التي إما أنها تعلن عن ورش، أو حادثة. أما بالنسبة إلى الرجال، فيبدو أن كلّ فحولتهم قد لاذت بشكل يدعو للفضول، بنهدين ناقصي النمو، حتى ولو أنهم ظلّوا يُظْهِرون، مثل من يبرر ذلك النقص، ما يضمن انتماءهم إلى الجنس الخشن، وقد تُرك متدلياً دون حاصر، إما بين سرابيلهم أو سراويلهم؛ أما عن بقية الجسم، فإنهم يبدون منتفخين بفعل ما لستُ أدري، إن كان غباء، أو تمارين، أو مجرد ادّعاء، في حين بقيت مفاصل الأطراف الضخمة، هي الأمكنة الوحيدة من أجسامهم، التي لا شيء استطاع النفخ فيها مع الأسف، مثلما يجري مع الطبيخة المنتفخة. لقد ظلّ كل هذا يُشيع بفظاظة المعتوه السّارة، التي يعتقد ذلك الأبله بأنه، وهو عليها، محق كل الحق.

جلست أنتظرُ في مكتب المدير، وقد سمحت لي فُرجة من الزجاج كانت مشرعة هناك، على قاعة الرياضة، بأن أتابع تأملاتي.

ثم دخل جان لو لانغينير، أخيراً. كان في الخامسة والثلاثين من عمره، وبدا بمظهر مفرط في رسم الابتسامة، والفحولة، وهناء البال؛ ضغط على يدي بقوة، وطلب مني أن أجلس، ثم قفز على مكتبه المديري، بحركة فيها إفراط كبير في إظهار الرشاقة.

قدّمْتُ له نفسي. وحاولتُ بعد الأشياء غير المهمّة، من قبيل اسمي وانتمائي الباريسي، أن أعرض أمامه الهدف من زيارتي. قلتُ

له إنّي لم آتِ للانخراط في مؤسسته الرياضية الراقية، وإنما لأطرح عليه بعض الأسئلة، لكوني باحثاً في الفلسفة. . .

- آه! فيلسوف. . .

تلفظ بذلك وكأنه يتلفظ بكلمة «زنجي». ومثل الغائب عن وعيه، قال وهو يتدارك نفسه:

- لكني لا أحب الفلسفة كثيراً. . .

ثم سلّط علي نظرة فارغة، أرادها أن تكون عميقة؛ لقد كان يدعو للرثاء، إلى حدّ أني - إكراماً له - لم أسأله، عن الكتب الفلسفية المفضلة لديه، لشكي في أن تكون فواتير الكهرباء، وقسيمة كراء المحل، وفواتير الغاز والماء، وجميع ما من شأنه أن يُعدّ الحدّ، الذي تنتهي عنده قراءاته، هي كل ما يندرج ضمن متنه القرائي المفضّل.

ولكي يُشجعني، قال وهو يغامر أكثر بالكلام:

- لم أكن أعلم أن ثمة باحثين في الفلسفة. . . تخصص لهم الدولة راتباً. . . لكن ما الذي يمكن حقاً، أن يبحث فيه المرء، حين يكون فيلسوفاً؟ أنا لا أرتاب في شغل العالم، ولا في الباحث في العلوم، ولا في الطبيب، إنما بالنسبة إلى الفيلسوف؟!

ودون أن أجيب عن ذلك السؤال مباشرةً، استغليت الفرصة لأوجّه الحديث، في اتجاه موضوع غاسبار لانغونهيرت، الذي أعمل أنا رسمياً، مثلما طمأنتُ محدثي، على كتابة سيرته.

- لقد كان أحد أسلافك، وكما ينبغي لي أن أقرّ لك بذلك، مفكراً من الدرجة الكبرى! فهل يوحي لك اسم غاسبار لانغونهيرت،

بشيء؟ لقد اضطر والداه، اللذان فرّا إلى هولندا إبان ثورة منشور نانتْ الملكي، إلى تحريف اسم لانغينير تحريفاً طفيفاً. . .

- ومتى وقع ذلك؟

- في أواخر القرن السابع عشر.

نظر إلي بعينين جاحظتين، وفم مفتوح.

- كل هذه أمور قديمة.

بقلق ظاهر، قبض على كرة ريغبية صغيرة جداً، كانت موضوعة فوق مكتبه. حينها، شعرتُ بأني أسير نحو فشل محقق.

- هل تذكر أنك سمعت شيئاً عن الرجل؟

- لا، أبداً.

- أو ربما تكون عائلتك احتفظت ببعض الوثائق القديمة، التي تخصّه. فهل لا يزال البيت العائلي موجوداً إلى اليوم؟ ربما احتُفِظ بشيء ما في العلية، أو في خزانة ما، أو في أي مكان. إن بمقدور الباحث أحياناً، أن يعثر على أشياء لم تكن تهمّ سكان البيت، على الإطلاق. إلا أنها سرعان ما تتكشف في النهاية، على أنها في غاية الأهمية، بالنسبة إلى البحث العلمي.

- أوه! لقد حرقتُ كل شيء، حين بعتُ البيت، لأسمح للطريق السيار باختراقه. إن طريق بيزانس، التي من المفترض أنك مررتَ بها قبل الوصول إلينا، هي التي اخترقته. لا يكون المرء مخيراً، دوماً. إلا أنهم كانوا معي رغم ذلك، أكثر انضباطاً. إذ استطعتُ بفضل التعويض الذي أخذته منهم، شراء هذا المحل وجعله نادياً رياضياً. فهل تعلم أن الأمور الآن، تسير على ما يرام؟

شعرتُ بأملي يتبخر. بينما ظلّ ذلك الكائن الذي يشبه البشر، يبتسم لي مع ذلك:

- ألم يتبقَّ بحوزتك... شيء؟

- لا شيء. رميتُ بكل شيء إلى القمامة، ولم ألحق حتى للاتصال بتاجر الخردوات. إن علاقتي بالأشياء القديمة، كما هو معروف...! ثم بالله عليك، أين كان بالإمكان أن توضع تلك الأشياء؟

- وبالنسبة إلى الكتب واللوحات؟

- اتصلتُ بأحد أصدقائي، وأخبرني أنها أشياء رديئة. كانت الكتب متآكلة، فأحرقتها مع البقية.

- قد يكون أحد أفراد أسرتك، أراد أن...

- ليس لي في العائلة، أحد آخر غيري.

ظلّ ينظر إلي، دون أن يستوعب سبب اشتداد حزني، فندّت عنه حركة متعاطفة.

- وماذا كان يحكي ذلك الجد؟ عجباً! لا أستطيع أن أصدق أبداً، أن تكون عائلتنا أنجبت فيلسوفاً! رجاء، ماذا كان يقول؟

- كان يقول بأن المادة لا وجود لها، وأن الجسد غير مادي. كما اعتقد كذلك، أنه الوحيد الذي يوجد في العالم، وبأنه خالق الأشياء من حوله. إن هذه الفكرة لتنتاب كل واحد منا؛ أليس كذلك؟

وظل دون ردٍّ، يتفرس فيّ لفترة طويلة. حينها انتابني إحساس بأني أرى من خلال جسده الشفاف، وكأنما كان غير موجود. بعدها، أمر لي بمشروب، ثم لم يعد بيننا شيء يقال.

وقبل الانصراف، شكرته. بدا مرتاحاً، وهو يرافقني. ثم كي يبدو ودوداً معي، سألني عمّا ظل يستأثر باهتمامه ومتعته:

- كيف وجدتَ نادينا؟

- مدهش... قلت أنا، بكيفية مغمومة.

- وهل تمارس؟

حينها، أحسست بأن الدوْر قد حلّ علي، لكي أعلن عن اندهاشي:

- أمارس ماذا؟

- ومن أدراني، أنا؟ إحدى الرياضات مثلاً، نشاطاً عضلياً معيناً! إن في ذلك لفائدة صحية، بل وحتى فائدة لرفع المعنويات، ويبدو مفيداً كذلك، حتى بالنسبة إلى العمل الذهني. إن لدينا هنا في النادي، منخرطاً يعمل في الهندسة. لم يعد مثلما كان، بالمرة. إنك لمن المشتغلين بالفكر، وذلك وحده سبب كافٍ، ليدفع بك إلى ممارسة الرياضة، وحينها ستشعر بأنك صرت على ما يرام، وسيقلّ انشغال بالك. أنا، منذ أن بدأت أمارس، تغيرتُ هكذا، وببساطة. أشعر دائماً بأني على ما يرام.

- ولماذا ينبغي على الإنسان أن يكون على ما يرام؟

- لست أردي... ليكون ببساطة، على ما يرام! تلك هي الحياة!

ثم كافأني بربتة مفاجئة على ظهري.

ظللتُ ليومين إضافيين، تائهاً بين أرجاء مدينة شيربورغ الممطرة على الدوام، وأنا حزين ومحبط ومهزوم ومنفصل عن زمني، بسبب الملابس الصيفية التي كنتُ أرتديها تحت معطفي الشتوي الثخين.

وكنتُ غير بعيد عن الميناء، قد تعوّدتُ على التردّد على حانة الباتاكلان، حيث تمارس فتاتان أو ربما ثلاث فتيات منهكات، مهنتهن بشكل فاتر، لتشعرنني بفعل النقص المشترك بيننا في المرح، إلى أي حدٍّ كنتُ متعباً، وغائباً عن العالم تقريباً!

حين سألتني مضيفة الاستقبالات في الفندق، وكأنها تلمّحُ لي بالانصراف، عن عدد الليالي الأخر التي أعتزم قضاءها في غرفتي، أدركتُ في الحين بأنه ما عاد لي ما ينبغي أن أصنعه، في ذلك المكان. وفي الحال، جمعت أغراضي، وغادرت في القطار الأول.

وصلتُ إلى باريس مساء. وكنت أثناء الرحلة، قد استعدتُ بعض الأمل الغامض، في أن يظهر من جديد ذلك الرجل، صاحب ورق البريستول. إلا أني سرعان ما رفضتُ التمسك بتلك الفكرة، شاعراً بعدها بخيبة أمل مفرطة. ثم سألت نفسي إن كنتُ في الحقيقة، لم أحلم بذلك حينما كنت في أمستردام، لأن كل هذا بدا لي في غاية الغموض، سواء الأمكنة، أو التواريخ، أو الناس، أو الأشياء... لا شيء وُجِد بالمرة إلا في ذكرياتي، فلم أعد متأكداً على الإطلاق، ممّا يؤطر تلك الأمور في الواقع. فمن - أو ما - الذي يُثبتُ لي، بأني لم أكن قد تخيلتُ تلك الأشياء كافة؟ من - أو ما - الذي يثبت لي بأن تلك الأحداث لم تكن ببساطة، من خلق نسيج خيالي المفعم بالرغبات المستترة؟ لم يعُد رأسي الصغير يطمئن لأي شيء.

لكني في باريس، وجدتُ تحت باب شقتي، المظروف نفسه، وعليه الخط الواضح نفسه، وبه الورق البريستولي نفسه، في انتظاري؛ وبه هذه الكلمة:

سيدي العزيز،

ألا تشرفونني بالمجيء لملاقاتي، ظهيرة الحادي عشر من الشهر؟

أظن أن لدينا - نحن الاثنين - الكثير مما ينبغي تبادله.

مع المودة.

كان العنوان مثبتاً على ظهر الرسالة. وكنا في العاشر من الشهر. لقد حُدِّد الموعد لليوم الموالي، وقد وصلت في الوقت المحدد.

توقفتُ أمام عمارة حديثة، عادية وقاتمة بمرمرها ونباتها الأخضر، بالكاد ينعكس الضوء العابر لبهوها، على صفحات المرايا المتقابلة فيه. دلفت إلى المصعد، وكنت يومئذٍ نظيفاً، ويشعر مرجّل شيئاً ما.

قطعتُ الممرّ، ووصلت إلى الطابق الثالث، ثم بلغت الشقة رقم 202.

ولجتُ شقة معتمة، كان خصاص نوافذها محكم الغلق، وستائرها مسدلة. كل شيء فيها كان صامتاً، وهادئاً. اجتزت عدة غرف ليس بها أثاث، محاطة في أسفل الجدار، بصفائح خشبية بيضاء تمتص لوحدها، الضوء الذي يمرق إلى الداخل. توالت الغرف، الواحدة خلف الأخرى. ثمة المزيد من الغرف. وإذا بي أشعر بأني جئتُ من قبل، إلى هذا المكان.

في عمق الممرّ الضيق، الذي يفصل بين الغرف، بدا لي وميض ضوئي. كان ذلك هو المكتب. لقد توقعتُ أن يكون المكتب هناك.

أخذتُ أقترب، ثم إذا بكُرَة صفراء، تظهر لي شيئاً فشيئاً، من بين العتمة. وصلت إلى عتبة الباب، فتحققتُ من أنها انعكاس لمبة مضيئة، على رأس شيخ أصلع.

- ادخُل، فأنا في انتظارك.

بادر الشيخ من تلقائه إلى تبديل هيئة وجهه، الذي كان وقد انقبضت أساريره، نسيجاً لا يصدَّق من التجاعيد والغضون والخطوط، فأدركتُ حينها أنه كان يبتسم لي.

- اجلس.

كان الكلام يُحدِث لديه نوعاً من الاهتزاز، فتخيلته برئتين شفافتين شبيهتين بالورق، الذي تُلفُّ فيه السجائر.

نظر إليّ من خلف جفنين شاحبين ومتغضنين، بدوا مثل شِقّين في غاية الضيق، إلى حدّ أني لم أكن أدري، إن كان نائماً، أم لا.

- انتظرتك منذ خمسين سنة. ثم رأيتُ بعد ذلك، إعلانك المنشور في إحدى المجلات الفلسفية. خمسون عاماً. آه! لقد انتظرتك بخضوع، لأني ظللتُ أعلم بأنّ ذلك قد يحتاج إلى كلّ هذا الوقت؛ إنما بأي لهفة، وفراغ صبر! لقد ذقت اليأس، وعشت الإحباط. إلا أنك هنا، أخيراً. ولسوف يكون بمقدوري التعرُّف على المزيد.

كان على ما يبدو، مصاباً بخبل الشيخوخة. وما هي إلا لحظة، حتى ساورني الندم على كوني جئتُ إليه، فأخذتُ أنظر إلى الغرفة التي كنّا نوجد بها، في شرود. كانت اللمبة ترسل إضاءة شبيهة بلون البول، فتضيء بذلك المكتب المغطى بملفات قديمة، وأوراق عتيقة طفح فوقها مداد بنفسجي؛ أما الحيطان التي لا يصلها إلا بصيص ضعيف من الضوء، فقد اتّضح لي أنها عبارة عن رفوف مليئة بالكتب، تشغل حيزاً يمتد من الأرضية إلى السقف. أدركت أنّا

مجتمعان في مكتبة صغيرة، فانتابني غريزياً شعور بالاطمئنان، وغصتُ في قعر أريكتي، وأنا أحسُّ بالارتخاء.

- لكنك يا سيدي، أنت دون أدنى شك، من عليه أن يخبرني رأساً، بأمور كثيرة.

وفي الحين، انتبهتُ إلى أنّ ما تلفظت به، كان أول شيء نبستْ به شفتاي، منذ دخولي هذه الشقة. وهكذا تصورتُ أن صوتي القوي والواضح، قد يكون أزعج من دون شك، الهواء، والجدران كذلك التي ظلَّت تغرق في صمت أليف. وعلى إثر ذلك، أحسستُ ببعض الثمالة.

- أنا مدينٌ لك من قبل، بالكشف عن مخطوطة شامباليون، وباليقين الذي جعلتني تلك المخطوطة بفضله، أتأكد من أني لم أكن أحلم، بالمرة. وأقرّ لك بأني كنتُ من فرط وحدتي وانشغالي بلانغونهيرت، انتهيتُ إلى الشك في كل شيء. وبهذه المناسبة، اسمح لي بالقول بأنّ ذلك الرجل الطيب المدعو بشامباليون، والذي قادتني إليه رسالتك، لم يبدُ لي أنه أنجز حقيقة، أي شيء جاد، بل بدا لي أنه ليس سوى روائي. لم يبحث عن شيء ذي بال أبداً، كي يضيفه، وإنما اكتفى بمجرد الحلم بلانغونهيرت.

- لقد كان وغداً، قال العجوز بحزم.

عندئذٍ، شعرتُ في نفسي بحاجة إلى الدفاع عن شامباليون.

- للقصة التي كتبها، على الأقل، فضلُ تسجيل اعتراض على الفلسفة الأنانية: فهو يبيِّن فيها جيداً، بأن ثمة في الحبّ، وفي الحب الحقيقي خاصة، تجاوزاً للذات، وتعلّقاً بالآخر، وهو ما يتعارض مع وحدة الشخص الجذرية. إن الحضور الفوري للغير،

سواء من خلال نظرته، أو وجهه، أو تصرفه، ليعطي الانطباع حقاً، بانفتاح الذات على الخارج، الذي يحيط بها.

- هذه حماقة. إن الشعور بالغيرية ليس سوى وهم، وأنت تعرف هذا جيداً. أما بالنسبة إلى الحب... وإلى التضحية بالذات... أوف... هل لك نية ما في تجريب الحب، ذات يوم؟

أخذتُ أتفحصُ العجوز، في تركيز وانتباه. كان ملفوفاً بالكامل في السواد، بحيث كان بالكاد يظهر وسط بدلته الفضفاضة بشكل مفرط، والتي تنتهي من جهة الرسغين بقماش أبيض منشّى، حيث تُطلّ من هناك يدان صغيرتان، من أشدّ الأيادي شيخوخة وترهلاً في العالم، حتى إنه ليبدو بذلك المظهر، وكأنما ظلّ عبر سنوات مديدة، يتقلّصُ في بطء، داخل ملابس شبابه.

ركّز نظراته علي.

- وأنت، ماذا وجدتَ بمفردك؟ وكيف اهتديتَ إلى غاسبار؟

صُعِقتُ عندما ردّد اسم «غاسبار»، فشعرتُ إزاء ذلك بالغيرة، وكأنما انتُزعت مني ملكيتي غصباً؛ إلا أني مع ذلك، لم أقوَ على مقاومة الحاجة إلى إخباره بكل شيء. قصصتُ عليه حكاية الشرارة الأولى، التي انطلقت مع وضع يدي على المعجم القومي لفوستيل الهويلييري، فابتسم في نباهة. وحين حكيتُ له اكتشافي للمجلد الذي كان يضم بورتريهات الكتّاب والفلاسفة، وهو ذلك الكنز الذي عثرتُ عليه في وقت سابق، على ضفة نهر السين، امتقع لونه:

- هل يحمل ذلك المجلد حقاً، الإشارة إلى سنة 1786، باعتبارها سنة صدوره؟

- وكيف علمت بذلك؟

- ذاك أمر منطقي!

شعرتُ بالحيرة. حدجني بنظرات، كانت تنمّ عن فرحة مشبعة بنيّة مبيَّتة على السوء. واضح أنه غار مني، بسبب كوني اكتشفت الكتاب المذكور، إلا أنه ظلّ يتلذَّذ بكونه يحيط بالأمر مع ذلك، أكثر ممّا أحيط به. وهكذا عرفت أني لن أتلقى جواباً بشأن سؤالي. لكن، كيف استطاع هذا الشيطان الماكر، أن يحزر تاريخ الصدور؟

- وهل تكون الورقة ربما، التي انتُزعت من الكتاب، بحوزتك؟

هزّ كتفيه، وطلب مني السماح له بفحص الكتاب. دفعتُ به إليه، على مضضٍ. وبنوع من الأسى والحزن، أخذ يتفحَّص الإشارة المثبتة في الكتاب، التي تعلن عن صورة غاسبار، والشريطَ الورقي الضئيل الذي خلَّفته تلك اليد المخرِّبة، حين بترت البورتريه. رأيته للحظة يحلم، ثم إذا به فجأة، يمسك بمكبّرة، وينخرط في فحص آثار البتر بعصبية. ثم رفع رأسه، وهو يهزأ.

- ذلك البورتريه لم يُبْتَر قط.

- بلى، ما دام غير موجود.

- قلت لك إن هذا المجلد قد تمّ نشره كما هو الآن، وأن ذلك البورتريه لم يوجد قط، وإنما اكتُفِي بالإعلان عنه.

أعاد إليّ الكتاب.

- انظُرْ إلى حافة الورق: لقد انتُزِعَت الورقة - إن سبق لها في الأصل أن وُجِدتْ - انتزاعاً مفرط الدقة، خاصة بالتزام المحاذاة المباشرة لحافة الكتاب، حيث لُفّ الورق إلى بعضه؛ قد يكون من المستحيل تقنياً، بتر تلك الورقة المفترضة بهذه الدقة، عند الانتهاء من جمع أوراق الكتاب إلى بعضها، دون تعرض الكتاب للتقصّف،

ودون أن ينبعج ظهره الذي سُفّر بالجلد. لقد ظلّ الكتاب على هذه الحال. بينما كل الصفحات الأخرى، ما عُدّت سوى غلاف نُذِر لاحتواء ذلك البورتريه الناقص.

تفحصتُ المنطقة الفاصلة بين الصفحتين من الكتاب بتركيز، فاقتنعتُ بأن إجراء ذلك البتر المزعوم، قد يتطلب من صاحبه بالفعل، دقة شيطانية خارقة، حين الانتهاء من إعداد الكتاب. لذلك، لم أستطع كبح نفسي عن القول، في تعجب:

- إذاً، ليس هذا الكتاب، سوى خدعة!

اعترت جسدَ العجوز هزةٌ، ساوقها صدور صوت حازوقات من فمه، فأدركتُ في ما بعد أنه كان يضحك، وهو الأمر الذي جعلني أكرهه.

- خدعة؟ لكم تبدو أبله! لا، الحاصل أيها الشاب، أنك تمتلك روحاً، تبدو لي خفيفة.

لا أستطيع أن أضيف عنه، أكثر مما ذكرت.

- فسّر لي الأمر، فأنا لا أحب الألغاز.

- هذا كلام خاطئ! لأن ما أعجبك في غاسبار هو الألغاز.

ثم غدا على حين غرة، وقوراً من جديد.

- أتظن أيها الشاب إذاً، بأن لصورة غاسبار أهمية ما؟ وهل من المُجدي معرفة ملامح، وسمات من يقول «أنا»؟ فهل للوعي أنف، وهل له أسنان، وندوب، وشارب؟

ظللتُ لا أستوعب القصد من كلامه، بالمرة. تنهّد، ثم واصل قائلاً:

- كيف يتسنّى لمن كان وحده العالم، وكان كل شيء، أن يترك

وراءه صورة تشي بأنه كان حيّاً، دون أن يقع بذلك، في تناقض مع نفسه؟ إن ما أُريدَ لنا أن نفهمه، هو أن غاسبار لانغونهيرت ليس له وجه.

توقف عن الكلام، كمن سرح به التفكير. ساورني الاعتقاد بأن ثمة بعض المعنى، في ما انتهى إلى قوله. فاجأت شفتيه تغمغمان:

- غاسبار لانغونهيرت ليس له وجه، إنه ضمير المتكلم المفرد، ضمير الأنا.

- لكن من يكون بالنسبة لك، كاتب هذه الإشارة الغريبة على الكتاب، سنة 1786؟ من استطاع أن يتجشم كل ذلك العنت، سيما وقد تعرّض غاسبار وقتها، للنسيان؟...

- آه، آه! هنا مكمن السؤال كله، وهو سؤال سيئ الظن حقاً.

ثم أخذ يتكلم بصوت خافت، بعد أن غطس في أريكته:

- في القرن الماضي، ولدتُ بزاغريب؛ هذا على الأقل، ما قيل لي، إذ من هذا الذي يتذكر يوم ميلاده؟ وهناك، ولجتُ الجامعة، ودرستُ تحت إشراف الأستاذ الكبير مزديل زورلاف، الذي تتلمذ على يد هيغل؛ إلا أن السفر الذي أجبرتُ عليه، في الواحدة والعشرين من عمري، وإقامتي الاضطرارية في مصحّة بياريتز، أوقفا كل شيء. كنت شديد المرض والإحباط معاً، وكان منظر بقية المرضى الآخرين المصابين بداء السّل، لا يساعدني إطلاقاً على اجتياز تلك المحنة. إلا أني في يوم من الأيام، اكتشفت من بين هؤلاء، رجلاً طاعناً جداً في السنّ، ظلّ يخوض في كلام غريب، سيخصُّني ببعض العناية. كان ذلك الرجل هو شامباليون.

- تعرّفت على شامباليون شخصياً!

- أجل، دون شك؛ أنا لم أحتفظ صراحة، بأي ذكرى خاصة به وقتذاك، لأني لم أدرك أهمية ذلك اللقاء، الذي جمعني به، إلا في ما بعد، أي بعد اختفاء الرجل، بوقت يسير. لا شك أنك تدرك ما أرمي إليه...

- بطبيعة الحال.

لم أكن في الحقيقة، قد استوعبت شيئاً.

أمسك بملفٌ كارتوني أحمر اللون، كان موضوعاً فوق مكتبه، ثم أخرج منه بعناية شديدة، وريقات هشة كُتبت بمداد بنفسجي، كانت مشدودة بعضها إلى بعض بحزام.

- ها إني أسلِّمها إليك. إنها لك.

- وما هذه؟

- أفكار غاسبار حول الدين.

بالكاد وثقت بحركاتي، وأنا أمسك الأوراق بين يدي.

- أهي أصلية؟

أخرج العجوز من صدره، زفرةً أشبه ما تكون بزفرة الحنق.

- لا، إنما هي نسخة.

- أهي التي أمدّك بها شامباليون؟

غار العجوز في مقعده الظليل مرة أخرى، في حين ظلَّت عيناه الصغيرتان تنظران إليَّ، بضجر ينمّ عن الانزعاج.

شعرتُ بإزاء هذا الخليط من الثقة والعداء، الذي تصرّف به الرجل معي، بعطل شلّ لساني. كان ينبغي أن أشكره، لكن ما من كلمة خرجت من بين شفتي.

- لا داعي لشكري، قال حين لاحظ تضايقي وتحرّجي. أنا لم

أفعل سوى أن تصرَّفت معك، بالشكل العادي جداً. ولسوف تصنع أنت أيضاً، الشيء نفسه في يوم ما.

إنه يحب بالتأكيد، الرجم بالغيب. وتلك إحدى العادات المستهجنة، التي تميّز كل الطاعنين في السن. ضممتُ الملف الأحمر إلى صدري بقوة، وشعرتُ وكأني أنوء تحت ثقل كنز، غنمته.

- هل لي أن أعود إلى رؤيتك مرة أخرى، بعد قراءة هذه الأوراق؟

- بالطبع، بالطبع...

- غداً؟

- مثلما يحلو لك.

- أبمقدوري الاتصال بك عبر الهاتف؟

- ليس لي هاتف.

- أنا كذلك، ليس لي هاتف.

- يمكنك بالطبع، أن تبعث لي برسالة، تخبرني فيها بقدومك، ولسوف أعمل ما بوسعي، لأكون هنا.

نهضتُ من مكاني، ومددتُ له يدي، من فوق المكتب. وأخيراً، نجح في إخراج أصابع يده الصغيرة والهرمة، من بين تلافيف كُمّ سترته مفرط الاتساع، فخالجني شعور بأني شددتُ بين يدي، على شيء يابس وقابل للعطب. وفي اللحظة التي اجتزتُ فيها العتبة، هجم عليّ الخوف. ثم عدتُ من جديد إليه.

- هل سنعثر في ما سيأتي من الأيام، على المزيد من الأشياء الأخرى الخاصة بغاسبار؟

تنهّد في عياء، فشعرتُ بأني خلّفتُ لديه انطباعاً راسخاً، يُستفاد منه أني لم أكن في عينيه، رجلاً شديد الذكاء.

غرس نظره في نظراتي، فإذا بي أفاجأ بأني لا أستطيع تحريك رأسي، وكأنما شُدّتْ جمجمة الرأس بمِلزَمَة. بعدها، فتح فمه، وأخذ يتلفظ بالكلمات في بطء، وكأنما بكيفية آلية تقريباً، حتى لصار منظره في العتمة، وهو على تلك الحال، مخيفاً:

- لن تعثر على غاسبار حيث ستبحث عنه. لا تدفع بنفسك إلى التيه، ولا تجرِ خلف العِليات، والأرشيف، والمكتبات أبداً. لا تبعثر نفسك هنا وهناك. عدْ إلى بيتك، واغلقْ الباب عليك. ثم غُص في التفكير. لا تبحث في المرئي أبداً، عمّا ليس مرئياً.

بعد ذلك الكلام، بلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً، فأغلق جفنيه، ثم حرّرني.

وإلى تلك اللحظة، لم أكن قد استوعبتُ قصده.

حرّك رأسه بإشارة صغيرة، وقال لي:

- الوداع.

ثم اختفيت.

من جديد، عدتُ إلى المجاز المعتم.

وعلى الدرج، أدركتُ أخيراً، ما ذكّرني به ذلك المكان، منذ أن حللتُ به: تلك الشقة رُصّفتْ مثلما رصّفتْ شقتي تماماً، إذ غرفها تتوالى بالكيفية نفسها، وفي عمقها يوجد المكتب؛ إنها إذاً التوأم الفارغ لشقتي، إنْ صح هذا القول.

هذا أمر مسلّ!...

ثم إذا بالباب يغلق، بمفرده، بعد أن خرجت.

حين عدتُ إلى شقتي، اكتشفتُ بأني رجعتُ بنصٍّ عجيب. لقد استطاع غاسبار، بعد أن أحكم الغلق عليه، في علّية قصر البروتون، حيث قضى أوقات طويلة في التأمل وحيداً، إلا برفقة شكوكه وقوة شخصيته، ومن غير ما اتصال بالبشر، أن يتوسّع في إنضاج هذه التأملات الميتافيزيقية الغريبة، المعنونة بـ: **ميتافيزيقا الله**، والتي شاء القدر وبعض القوى الأخرى المجهولة، أن تحتفظ لي بها، إلى أن بلغَت بين يدي.



- I -

انحنى الله من النافذة، يطلّ على العالمين، فتساءل عن علّة خلقه لكل تلك الخلائق: ما الفائدة من وراء خلق أصحاب تلك المعاطف وأصحاب تلك القبعات، الذين ما إن يعبروا الشوارع والطرقات، حتى يعودوا ثانية إلى عبورها، من غير توقف؟ وماذا يزيدني ذلك الرجل الضاحك هناك، وتلك المرأة التي تزن مقدار تأثيرها، هنالك؟ وما نفع البلاط المرصَّف، وبركة الماء في الطريق، والقاذورات، والوحل؟ ولماذا الشيخ، ولماذا الطفل؟

لماذا خلقتُ - حقاً - كل هذا؟

- II -

كيف كنتُ من قبل؟ قبل دحي الأرض، وخلق الناس؟ حين كنت وحيداً أحداً، حقاً، في هذا الملكوت؟

لا أذكر ذلك؛ إن ذكرياتي لا تبدأ إلا مع بدء العالم.

- III -

إنني للأسف، لم أقوَ على الاكتفاء بذاتي.

لم أقوَ على فعل شيء آخر، سوى خلق العالم.

إذا كان الله جديراً بصفة الله، فإنه لن يكتفي بأن يكون ذاته وحسب، وإنما أن يفعل أكثر من ذلك: أن يخلق. ولأن الله عليٌّ قدير، فهو يستطيع فعل ذلك؛ ولأن الله طيب، فهو فعل ذلك. بدافع القدرة والواجب، يفيض الله عن نفسه، ويتدفق بسخاء: ذلك هو واجب الوجود المطلق.

- IV -

إني شئتُ ذلك، وعليّ أن أتذكره.

- V -

غريب جداً أن أكون أنفقت عدة سنين، كي أدرك في النهاية، أني الله! مع أني ظللتُ أملك منذ حين طويل، كافة العناصر في يدي...

لقد انتهيتُ إلى الاعتقاد بأني الموجود الواحد الأحد في

العالم، وأصل كل شيء، بفضل التأمل وحده. ثم قرّ في ذهني ذات يوم، أنّ من يملك مثل تلك القدرة، لا يوسم بغير هذا الصفة الوحيدة: الله. تأخر أوان التعميد.

- VI -

يتساءلون عن علة الوجود...

يا لهؤلاء البشر السعداء! بمستطاعي أن أخبرهم! إنهم ليسوا هنا، إلا من أجل متعتي الحقة. أنا إلههم!

لكن - أنا - لا أحد يستطيع أن يجيبني، عن السؤال نفسه...

- VII -

ليس ثمة إلا الله، الذي لا يعلم من أين جاء.

- VIII -

الله يتيم بالولادة.

- IX -

ليست لي أصول أخرى غير ذاتي.

- X -

أليس كونك الأصلَ، أو جهلك كل شيء عن الأصل، الشيء نفسَه في العمق؟

الشفافية غير مرئية. تماماً مثل الظلمة.

- XI -

أن تؤمن، هذا جميل، لكن أن تؤمن بماذا؟

- XII -

لم أقرّر في وجودي، لأن اتخاذ القرار يستلزم من الذات وجوداً قبلياً، كي تقرّر في أمر كينونتها؛ وهو ما يرجئ المعضلة، ولا يحلها.

لقد قرّ في ذهني أن أكون - كواجب الوجود المطلق - غير أني لم أشأ ذلك.

أنا أصْلي الخاص، لكنه أصلٌ غير إرادي، أو بالأحرى مضادٌّ للإرادة.

- XIII -

الله في النهاية، لم يكن يرغب لا في ذاته، ولا في العالم. إلّا أن ما حصل له كان ينبغي أن يحصل له . . . وبالضرورة.

وهل تبقى الإرادة التي تنبثق عن الضرورة، إرادة حرة؟

آه يا مجانين، آه يا نمل، لا تتحسروا على أي شيء، إذاً! سهلٌ جداً أن لا يكون المخلوق سوى مخلوق. أما مرتبة الله، فتبدو لي وكأنها أفظع السجون. . .

- XIV -

لقد خلقتهم. فلماذا يسومونني العذاب؟

- XV -

إنهم ناقصون، ومحدودون، وفانون. . .

لذلك، يجد الله نفسه بالضرورة، مع رفقة سيئة.

- XVI -

لماذا تقاوم مخلوقاتي في بعض الأحيان، مشيئتي العليا؟ ولماذا تفعل شيئاً آخر، غير الذي أرغب في أن تقوم به؟

توصَّلت بخصوص هذه المعضلة، إلى أمرين:

1 - إما أني كنت، لطيبتي غير المحدودة، قد خلقتها على صورتي حقاً - وهو الأمر الذي قد يجري علي بالفعل - فوهبتها نوعاً من حرية الفعل والتصرف، ونوعاً من السيادة، ومن الاستقلالية التي من شأنها أن تسمى: حرية.

2 - وإما أنها ليست حرة إلا على مستوى الظاهر، بينما لا أنفك - أنا - أتحكم فيها، وأحرِّكها بالفعل، إنما وفْقَ برنامج، أو بحسب تصميم لا يزال يفلت مني، أنا بالذات، وهو ما ينبغي عليَّ العمل على الإمساك به، في يوم من الأيام. وفي هذه الحالة، أكون مُكرَهاً على القيام بأكثر ممّا أنا واعٍ به، وتلك لفكرة غالباً ما تصدمني.

على كل حال. . . كل شيء يجد تفسيره في الحالتين معاً؛ ثم إن الفظاظة الصغرى في تصرف تلك المخلوقات، لا تعرِّض تصوري إلى الخطر، بالمرة.

- XVII -

العالم... آه! لكم مللتُ من التهام هذا الحساء، الذي أجدني مكرهاً على تقديمه لنفسي، في كل وقت. ما عدتُ أقوى على هضمه، فهو سُمّ زعاف، وعفونة.

آه! لكم أعشق استنشاق هواء حياة المطلق النقية، حياة لا يكون فيها إلا أنا، وأنا.

- XVIII -

إنها حياة الخلود، طبعاً...

لكن إلى متى سيدوم الخلود؟

* * *

وضعتُ الوريقات جانباً. كان الصوت المنبثق من بين السطور، حميماً وأليفاً؛ وقد ظلّ وهو يحكي تلك القصة، التي مهما بدت غريبة، يذكّرني بشيء ما، وكأنما تلك القصة ما كانت سوى رجع صدى لإحدى الذكريات. حينها، تولّد لديّ انطباع مفاده أني أتعرّف فيها على شيء من الأشياء، أكثر مما أنا أكتشفها. ترى، من أين جاءني هذا الشعور؟

جلتُ ببصري من حولي. كانت الشقة تموج بالنعاس: ثمة بعض شعاع القمر الغائم، الذي يتركز على الزاوية اليمنى من المكتبة، مسلطاً خيطه الضوئي البارد على ثلاثة كتب؛ بينما ظلت العتمة تبتلع البقية. حينها، شعرتُ بأني حُر.

أعدتُ قراءة أفكار غاسبار، مرة أخرى. وفي تلك الأثناء،

خامرني الاعتقاد بالوجود في قلب ما كانت تقوله الكلمات، بل وشعرتُ حتى بأني قلبُها بالذات. لذلك، شعرتُ أن بوسعي متابعة اللعبة... فرأيتُ غاسبار في عزلته عن بقية البشر، وهو منشغل بتحرير هذه المقالة الميتافيزيقية... حزرت حالات تردده، وتشطيباته، والمداد الذي كان يجف على الورق، بأسرع ما تجفّ عليه أفكاره... لقد كنت أشدّ نفاذاً إلى المشهد، حتى إني انتهيت إلى الشك في أن ثمة اختلافاً ما، بين فعل التخيُّل وفعل التذكُّر...

كان غاسبار قد أدرك أنه الله. لكم تُخلِّف بعض البديهيات أثراً موقوتاً في النفوس! لقد خلق الله العالَمَ بفيض قدرته، ووهب الإنسان في غمرة فرحه السخي، الحرية. لكنه منذ ذلك الحين، ظل يعاني من هذا الهامش الذي يُفرط الناس في استعماله، والذي لا يستعملونه إلا لكي يتسببوا له في المعاناة. على هذه الهيئة، ينبغي أن تكون وضعية الله: تحسّر ثابت على طيبته...

كنت على وشك الفهم. بدوري صرتُ عرضة لنهش الفكر. استبدَّت بي الرغبة في معرفة التتمة. لا، بل أفضل: كنت على علم بالتتمة. لقد كنت أنا بالذات، وهذا أمر يقيني، مؤتمناً على السّرّ.

كفى تأخراً! فتشتُ في سلة المهملات، كي أجد بعض الورق الذي لم يكن مكتوباً من جهة القفا، ثم أفرغتُ المكتب بجرة من ساعدي، وجلست.

رميت بنفسي بين أحضان الكتابة.

لقد فهمت.

كان الشيخ على حق.

لا فائدة من وراء البحث في المرئي.

تركت العنان للقوة التي تُسمى غاسبار في دخيلتي، فاكتشفت - وأنا أشتغل بالقلم الريشة - ما كان ينبغي أن تكون عليه نهايته...

بعدما أغلق على نفسه في علية البيت، وبات أبعد ما يكون عن البشر، وأقرب إلى السماء، استعاد غاسبار قواه مرة أخرى. تعافى من ذكرى الغجرية، فنسيها نسياناً تاماً. هو لم ينسها دفعة واحدة أبداً، وإنما أخذ منه ذلك عدة شهور. في البداية، لم يكفّ عن التفكير فيها، حتى ولو أنه لم يكن يرغب في ذلك بتاتاً؛ لكن ما لبث البشر أن اختصر عنده بعد ذلك، إلى مجرّد خطوات موقعة على الأرضية الخشبية، وإلى طرقات ثلاث متوالية على دفّة الباب الموصدة، وسلة الغسيل المتروكة جانباً، أو صحن الطعام الذي يبقى في الانتظار، على درج الطابق الأخير، بأعلى السلم صعب الارتقاء.

وكانت الطرقات الثلاث يومذاك، قد وُقِّعَت على دفة الباب بالفعل.

فتح غاسبار الباب يومها، على إثر الطرق، فكادت الخادمة الصغيرة تموت من شدة الخوف: لقد نسيت أنّ من الممكن أن يكون ثمة، خلف دفة الباب، إنسان. حيّته بطريقة فيها ارتباك ورعونة، ثم استردّت صحون الليلة المنصرمة، وعادت مسرعة من حيث أتت، حتى إنها جازفت بحياتها في نزول السلم، لأنها لم تكن تعبأ بإمكانية أن تسقط، وينكسر عنقها. حينها، استنتج غاسبار بكثير من

الاطمئنان، أن البشر قد استعادوا سلوك التوقير اللازم لشخصه، أثناء فترة اعتزاله لهم. ودندن في ذلك اليوم بالذات، بلحن أوبرالي إيطالي، أثناء حلق وجهه.

وحين أعلنت الساعة تمام منتصف النهار، ولج غاسبار فجأة الصالون الكبير، حيث كان أعضاء العائلة كافة، بمن فيهم بنات الأخ، والأعمام، وأبناء العم، والعمات المسنات، يتهيئون للانتقال إلى المائدة، لتناول الغذاء.

- لقد انتهى أوان الامتحان. هيا، فلتمرحوا. لم أعُد غاضباً.

كان الله قد تغيّب، وكان يبحث، وها هو يعود للظهور، ثانية.

ثم انطلق يقيس بكلتا عينيه، قامة أعضاء الأسرة، في حين أخذ الجميع ينظر إليه، بفم فاغر وعينين جاحظتين. ولشدة الذهول والاندهاش، خيَّم صمتٌ مطبق على الكلّ للحظات، حتى لصار بمستطاع المرء أن يسمع حينها، طنين الذباب في الأجواء.

- لا ترتجفوا، يا معشر الفانين. فالله سلام، والله محبة، وليس شيئاً آخر. لذا، ادعوني، أستجب لكم. اطلبوا مني كلّ ما ترغبون فيه.

حينئذٍ، أمسكت العمة أديلاييد، التي ظلّت بلهاء على الدوام، غير أن الشيخوخة صيّرَتها تخرف، بذراع غاسبار.

- إن كنت قادراً حقاً، يا غاسبوني، على تحقيق كل شيء، فكلّ ما أرجوه منك هو أن تعيد إليّ الشباب.

ببرود، أخذ غاسبار يتفحّصها.

- لكنك كنت دوماً، أيتها العمة أديلاييد، امرأة عجوزاً ببشرة تخرطها التجاعيد. رأيتك دائماً على هذه الهيئة، وأنا مَن جعلك

تظهرين على تلك الحال! فإن أشاءُ رؤية شيء جميل، ألتفت صوب صوفيا. لهذه الغاية بالضبط، خلقت ابنة عمي صوفيا.

ثم قطّب حاجبيه، وراح يزمجر بصوته:

- طلبك غير مقبول أيتها العمة أديلاييد، وغير جديرٍ بأن يُرفع إلى خالقك. إنك حقاً لامرأة مخرفة.

احمر وجه صوفيا، بينما انخرطت أديلاييد في البكاء.

ثم تحرك غاسبار ينوي مغادرة الحجرة، وهو غاضب. وقبل اجتياز عتبة الصالون، التفت صوب الحاضرين، وأطلق تحذيره للمرة الأخيرة:

- فكروا في تقديم طلبات مقبولة؛ ويتعلق الأمر أساساً بمسائل خلاصكم، وخلودكم. أما ما تبقى، فليس لله ما يصنعه بمثل هذه الأمور الصبيانية. لكُم أزكى التحيات من الخالق.

وفي الظهيرة، أبلغهم بلائحة الأغراض التي كان في حاجة إليها، للقيام ببعض الأعمال الخاصة به، كما طلب منهم أن يضعوا رهن إشارته كذلك، خادماً يكون في خدمته. وعلى إثر ذلك، ساد الاعتقاد لدى العائلة برمتها، أنّ ابن العم قد اجتاز العتبة حقاً، التي تفصل بين الهذيان والجنون الخالص، إلا أن العائلة أذعنت لطلباته مع ذلك، لأنها رأت أنّ عليه أن يوقِّع لها من جديد، على وثيقة توكل أفرادها بتدبير شؤون ثروته. وهكذا، تسلّم غاسبار إذاً، لوحاً خشبياً للطبع، وملزمة، وحروفاً معدنية، وبعض المداد، وعلباً من الأوراق، كما التحق الخادم المدعو بورغينيون بخدمته، بعدما كان يعمل في الإسطبل.

* * *

كان اليوم يوم الصلاة. لذلك، لبس غاسبار بطريقة فاخرة، واضعاً قميصاً من الدانتيلا، وسترة حريرية، وخواتم، وحلياً، وأزراراً من الأحجار الكريمة، ثم وضع على رأسه قبعة تنتهي بريشتين، وعلى وجهه بودرة. وأمام المرآة، تراءت له صورته تلمع حقاً وكأنها شمس، فقال لبورغينيون من دون أن يسرد الكثير من التفاصيل:

- اتبعني، فنحن ذاهبان إلى الصلاة.

- إنكم لتبدون يا سيدي، بصورة أبهى وأجمل، مثل البابا تماماً!

صبّ عليه غاسبار المزيد من العطر، ثم انخرطا معاً في السير نحو الكنيسة.

وفي الطريق، صادفا فقيراً معدماً.

كان متسخاً ونحيلاً، حتى لبمقدور المرء أن يحصي عدد عظامه البارزة، من تحت ثيابه الرثة والبئيسة. أما فمه، فكان لا ينفتح إلا على ثلاثة أسنان، هي كل ما كان يملكه ذلك البئيس، بينما بقية الأسنان والأضراس فقد أطاح بها البؤس والفقر. وكان يجلس على قارعة الطريق، باسطاً يده في اتجاه المارة، يطلب الصدقات.

- مَن أنت، يا أنت؟

- أنا الفقير، قال الفقير. عارياً خرجتُ من بطن أمي، وعارياً سأعود إلى بطن الأرض. لم يرزقني الله شيئاً، وليست لي إلا كسرة خزف لأحكّ بها جلدي، وجورباً بالياً لطلب الصدقات. سقفي طريق مشرّعة على السماء العارية، وسريري صخرٌ متحجر. أعتاش على جود الغير وكرمه، وهو ما يعني بصيغة تقريرية، أني أموت من الجوع.

- لكن ماذا صنعت، حتى انتهيت إلى هذه الحال؟

- وما الذي صنع البريء، ليولد يتيماً؟ وما الذي جناه الأعمى، ليفقد ضوء بصره؟ وما الذي اقترفه الجنين، ليتكبّد آلام الترك والفقدان؟ لقد عوقبتُ حتى قبل أن أكون قد اقترفتُ شيئاً يذكر، وحلَّت بي اللعنة، حتى قبل أن أولد. أتعلمون يا سيدي، ما الذي أفكر فيه، في بعض الأحيان؟ يسود لدي الاعتقاد أحياناً، بأن الله لا يحبني.

شعر غاسبار بالصدمة.

- هذا مستحيل. الله يحب كافة خلقه في الأرض. إن حبّ الله يسَعُ كافة من خلق، وسوّى.

- إذاً، قد يكون حين خلقني، انشغل عني بشيء آخر. جائزٌ جداً أنه كان يتسلى بشيء ما، ويعيش لحظة غواية، حين خلقني، فآلت نتيجة خلقه، إلى هذا الإخفاق.

- هذا مستحيل. إن الله يحيط بكل شيء، في الوقت نفسه.

- التفكير في كل شيء هو بالتأكيد، أمر فيه إفراط. من المرجّح أن يكون في الوقت نفسه، قد انهمك في معاقبة أحد البؤساء، بينما كان منكبّاً على خلق أحد الأبرياء، فحصل أن خلط بين الاثنين. أنا نفسي، يحدث لي هذا، كل يوم...

رفض غاسبار قبول هذا الكلام، فصدر عنه صوت قاطع، لإسكات الفقير أولاً، ثم لإقناع ذاته بذلك الكلام، ثانية.

- إن مشيئة الله لعصيَّة على النفاذ. فلا تحكم على ذكاء الخالق الأعظم، من منطلق ذكائك الذي هو بالضرورة، ذكاء محدود. حقاً، إن لله في خلقه الناسَ على تلك الحال، لشؤوناً. إنما سأفكر في هذا الأمر.

- هو كذلك، له في خلقي على هذه الحال لشأن ما، إنما شؤونه ليست بالتأكيد، هي شؤوني. كان حلمي أنا، أن أكون ثرياً ومسؤولاً عن نُزل، لكن أظن أنكم فهمتم الآن...

كان غاسبار حانقاً، يتميز من الغيظ على نفسه. لم يكن قد فهم سبب العقاب، الذي أنزله بذلك المسكين. وفي الوقت نفسه، كان غضب ذلك البئيس المُعدَم، قد استثاره. لذا، اندفع في حماسة طيبته الكبرى المفعمة بالحسرة والندم، فأمسك بيد الفقير، وقال:

- ومع ذلك، فإني لا أريد بك أي سوء، فهل تدرك هذا؟ لا أريد لك غير الخير، خيرك وسعادتك. أنا أحبك، فهل تعلم؟ مثل الآخرين تماماً.

- إذاً، ماذا لو يتكرّم عليّ سيدي، فيُلقي في يدي، قطعة نقدية صغيرة...

ارتجف غاسبار من شدة الفرح.

- أستطيع فعل ما هو أحسن كذلك، بالنسبة لك. أستطيع أن أضمن لك حياة الخلود.

- أنا لا أطمع سوى في قطعة نقدية، تضمن لي الطعام الساعة المقبلة.

انفطرت دموع غاسبار، من شدة التأثر.

- حياة الخلود، حياة الخلود... أتسمع؟

- نعم، نعم. لكن الصلاة لا تملأ البطن، وخبز المذبح يفتح شهيتي للطعام، وحسب.

نظر إليه غاسبار في حنان، وهو صامت. وإذا بذلك الصمت يهدئ من روع الفقير، بشكل غريب.

وبعد ذلك، استأنف حديثه، بصوت مفعم بعذوبة شديدة:

- ألم تتعرّف علي؟ ألم تتعرّف على الذي تتضرّع إليه، وتصلي من أجله، وتلعنه طيلة الطريق؟ ألم تتعرف على من أنزل بك كافة الآلام، التي ظللتَ تشكو منها، فجاء اليوم ليفرِّج عنك كربتك؟ ألم تتعرف على مولاك، جلّ شأنه؟

- أنتم...

- نعم، أنا الله، خالقك ومولاك. وأنا هنا للتخفيف عنك.

أخذ الفقير يتفحّص فيه من تحت، في ارتياب.

- إنكم مفرطون في الأناقة، أكثر ممّا هي هيئة مولانا. فقد كان فقيراً، رث الثياب مثلي، ويمتهن مهنتي نفسها. أنا على يقين بأن بشرة قدميكما بيضاء وناعمة، مثل بشرة الصبيان. إن المولى لن يخرج للتنزه أبداً، وهو على مثل هذه الهيئة. ثم إنه لن يساوم في حسنة، لا بهذا المعنى، ولا بذاك؛ إلا أني ربما، أتوهم...

- أنا إلهك، لأنك في حاجة إلي.

- إذاً، قد يكون العالم مسكوناً بالآلهة، لأني لا أملك شيئاً، وأحتاج إلى العالم كله.

- أنا لا أحدِّثك عن المال، وإنما عن خلاصك.

- إن ذلك انشغال الشبعان. أما بالنسبة إلي، فإن المستقبل يتحدد في الطعام القادم، ومن ثمة لا أسمح لنفسي بالنظر أبعد من ذلك.

- لكن، أتتمسك بالحياة؟

- أظنني أفعل، وإلا ما كنت لأرهق نفسي هكذا، من أجل

كسب لقمة عيش؛ فهل تظنوني كسولاً؟ ثم أضف إلى ذلك، أن الحياة هي كل ما أملك.

- وترغب في أن تحيا إلى الأبد؟

- على هذه الحال؟ لا! تكفيني ستون، أو سبعون سنة على هذه الحال. لكن، إذا ما صرتُ غنياً، فإني أرغب في ذلك، بشكل جيد.

- لكن الغنى الأرضي ليست له قيمة.

- هذا ما يردِّده الأغنياء.

- إنه كلام الله. ومع ذلك، أباركك، وأعفو عنك.

ثم وضع غاسبار يده فوق كتف الفقير، في احتفالية رسمية، وفكّ صرته القطيفية، ووضعها في يد الفقير.

- خذْ، أنا أعطيها لك.

- هذا كثير.

- ليس بالكثير عليك، ما دمت لا تملك شيئاً.

- لكن، لن يصدقني أي أحد، إن قلت له إني كسبتها بشكل شريف. سيُقال إني سرقتها، لأن ما من أحد يعطي الفقراء، أو يقرضهم شيئاً كهذا.

ثم قهقه.

- والشرطة؟ ماذا سأقول للشرطة إن هي استنطقتني؟ أأقول لها إن الله هو الذي أعطاها لي؟

ظلّ جسده النحيل يهتز من فرط الضحك، حتى اضطر إلى امتلاك نفسه على الحافة، حتى لا يتهاوى على الأرض.

وحين استعاد توازنه، قال وهو يمسح آخر دمعة عن عينيه:

- إن يسمح لي سيدي بذلك، فلن أتناول من هذه الصرة غير قطعة واحدة. ولسوف يكون كل شيء على ما يرام.

- افعل ما تريده، قال غاسبار، وأحبّني جيداً.

- حاضر، يا سيدي.

وكان على الفقير أن يعضّ على شفتيه، حتى لا يضحك مرة أخرى. ثم أخذ في الأخير، قطعة نقدية عض عليها بأسنانه الثلاثة، ليتأكد من معدنها، وحيّا غاسبار بتدوير قبعة متخيلة حول رأسه دورات كبرى، ورسم ركعة، وقبّل يده، وانصرف مدمدماً:

- صحيح، المهنة لم تعُد مثلما كانت. ما ينبغي القيام به مع ذلك...

التفت غاسبار صوب بورغينيون، وقال له، والابتسامة على شفتيه:

- انظر يا بورغينيون، ها هو مسرور آخر يُضاف إلى اللائحة. يبدو أن النهار بدأ بشكل جيد.

هزّ بورغينيون كتفيه، وأخذا يسيران في اتجاه الكنيسة.

وصَلا الكنيسة في منتصف القداس، وكان القسّ قد انكبّ من على منبره، يخطب خطبته المتوعدة، أمام جمهور من البسطاء الذي ظلّ منشدّاً إليه باهتمام، وهو يتشرب بلاغته الدينية في سكينة وخنوع.

- عليكم بمخافة الله، قال القسّ بنبرة مرعدة. فأنتم أشرار، وقذرون، بينما الرذيلة تنخر بشرتكم وعظامكم، وروائح شهوتكم التي تفوح بنتانة عطنة، تصعد إلى خياشيمي، ويقطر من بين أيديكم الفجور.

كان الآباء والأمهات الطيبون، الذين بدا أنّ شغل الأسبوع كله قد أنهكهم، فأخذوا في ذلك اليوم زينتهم، وارتدوا ملابسهم الجميلة، قد افتتنوا بعنف القداس؛ وظلوا فضلاً عن ذلك، يستلذون في قرارة أنفسهم، حتى وإن بدوا أشد رصانة ووقاراً، بتلك القدرة على اقتراف الذنوب، ولو لمرة واحدة في الأسبوع، أو تلك القدرة بالأحرى على اقتراف مثل ذلك الفجور، الذي ظلّ القس يرميهم به. إنهم - حقاً - لا يقربون الزنا، إلا أثناء الصلاة، وذهنياً على الأقل. لذلك، ظلّت هذه الخطبة بحق، عظتهم المفضلة.

- إن عيونكم لمتورمة من فرط الرغبة، ورذائلكم ملأتها بجيوب، زادت تلك العيون تورماً على تورمها الأصلي، وبشرتكم محمرّة ومنتفخة من فرط احتكاك بعضكم ببعض. إن مهابلكم لتدمي، وقضبانكم لتلتهب. لذا، ليس لكم والله من خلاص آخر، إلا بالتحسّر والندم على فعالكم. وكلما كان تحسركم حقيقياً وصادقاً، إلا وكان بمقدور الله ربما، أن يغفر لكم، ويصفح عنكم...

مشى غاسبار بخطوات مستقيمة، إلى أن بلغ الهيكل، وظلّ وقع خطواته يدوي عالياً وبوضوح، تحت القبة. ارتقى الدرجات، ووقف تحت الصليب قبالة الحاضرين والحاضرات، وفتح ذراعيه، ثم قال بصوت مدوٍّ:

- معشر المخلصين البَرَرة، لا ينبغي عليكم أن تخافوا بعد اليوم شيئاً، لأني مستعدٌّ للصفح عن كل شيء. اسرقوا، واقتلوا، وانكحوا، فهذا غير مهم. أيتها الخليقة! افعلي إذاً، كلّ ما ترغبين فيه، إنما عليك بمحبة الله، وخشيته، واحترامه. وفي هذا يكمن

طريق خلاصك. وفي هذا طريقك إلى الحياة الأبدية الخالدة.

شاع صمت رهيب في أرجاء القاعة. إذ بالكاد استطاع الناس، لانشغالهم بمتابعة خطبة القس، أن يروه داخلاً، ثم صاعداً الدرجات ليقف تحت الصليب. لذلك، ساد الاعتقاد أن في الأمر تجلياً ما. وممّا زاد في قوة ذلك الاعتقاد، أن غاسبار بدا من موقعه جميلاً للغاية، وقد اصطبغت عباراته بطابع نبالة شديد، وطريقته في الحديث بدت واضحة للغاية، حتى ظنّ الناس لتوِّهِم، وكأنه ملاك نزل من السماء. وكان لمعان الزجاج الأحمر، ممتزجاً ببريق الذهب، ينعكس على شعره الطويل اللامع كذلك، وهو الأمر الذي حدا بالبعض، إلى أن يرى في هذه الدائرة الضوئية المحيطة بوجهه الوديع، هالة ضوء بزغت لتوها حوله:

- أحبوني، استأنف غاسبار يقول. أحبوني، ولسوف تُغفَر لكم ذنوبكم كافة.

هيمن على الكنيسة جوٌّ من السلام الغريب، إلا أن القس الذي توقّف عن الكلام لبرهة، ما لبث أن شعر بحنق شديد، إلى حدٍّ جعل غضبه، يعيد إليه زمام الأمور من جديد.

- من أنت؟ وكيف تجرأت على مقاطعة الخطبة؟

- ماذا؟ ألم تتعرّف علي، يا من يدَّعي تمثيلي في الأرض؟ آه عليك يا أنت، يا خادمي! آه عليك يا أنت، يا من كرّسته لنشر كلامي بين الناس! أفلا تعرف من أكون؟ ألم تتعرف على سيدك ومولاك؟

أغلق القس عينيه، محاولاً تمالك نفسه، من خلال تمسّكه بحاشية المنبر. كانت تلك هي الصلاة الثالثة صبيحة ذلك اليوم،

وكان النبيذ ككل يوم أحد، قد صعد إلى رأسه، فانتهت به خطبته إلى حالة من السّكر. وَقْعُ الانفعال كان قوياً جداً على نفسه، إذ أغمي عليه وهو في المنبر، ولم تعد تُرى منه غير يديه، اللتين ظلتا ممسكتين بحاشية الدرابزين.

شاع الاعتقاد بأن القس أغشي عليه من فرط السعادة، فتعرّف الناسُ بذلك، على الله في شخص غاسبار، وذلك بكيفية نهائية لا جدال فيها؛ فتعالت الصيحات، وهي تردّد: نويلْ، نويلْ!

جامداً في مكانه، استقبل غاسبار الهتافات، ثم ما فتئت ابتسامة الرضا أخيراً، أن ارتسمت على شفتيه. بارك الجمعَ بإشارات منه، ثم خرج ببطء عبر حجرة الساكريستيا. حينها، ترددت أناشيد العفو والرضا، وعمّ البكاء، والصلاة الخاشعة، والرقص، وأكّد بعضهم أنه رأى تمثال العذراء المصنوع من الخشب، يذرف الدموع بالقرب من تمثال السان بيير المصنوع من الجبس.

عاد غاسبار من حيث جاء، مخترقاً الأزقة الخالية من المارة، بدواخل هادئة وساكنة. وما من أحد فكر في اقتفاء أثره، وإنما كان بالنسبة إلى الجميع، قد عاد مباشرة إلى السماء. وحده بورغينيون من كان يرافقه، بفاصل عشر خطوات بينهما. إلا أن بورغينيون، ولفرط انخراطه في الضحك، ظلّ يتوقف في كل لحظة، كي يتكئ إما على حائط، أو على كرسي عمومي، ليضحك مقدار ما يحلو له. وكان وجهه قد تغطّى بالدمع، وتنفّسه يتقطّع للحظات، إذ لم يكن قد رأى حقاً، خلال ثلاثين سنة من حياته كاملة، أغرب ممّا رآه ذلك اليوم، بل بلغ به الأمر مبلغاً عظيماً، وهو على تلك الحال من الضحك، إلى أن أبلّ سرواله.

وحين انتبه إليه غاسبار، وهو على ذلك الوضع، وبّخه كثيراً، وتوعد بإعادته إلى الإسطبل، حيث كان يعمل. حينها، صحا بورغينيون لنفسه، وارتمى على ركبتيه تواً، وراح يتضرع إلى سيده. ولأن غاسبار كان طيباً، فإنه سرعان ما صفح عنه.

بعد ذلك النجاح الذي حققه غاسبار، شقّ عليه كثيراً أن ينتظر إلى غاية يوم الأحد المقبل، فراح يلوم نفسه يومياً، لكونه خلق سبعة أيام في الأسبوع.

وحتى يحتال على الانتظار، غاص في قراءة الإنجيل. وعندما يرى بورغينيون سيده، منهمكاً في قراءة الكتاب المقدس ذي الدفتين المسفرتين بالجلد، كان يسأله عمّا يفعل، فيجيبه غاسبار بكيفية ميكانيكية، قائلاً:

- أراجع أوراقي.

ثم إذا بيوم الربّ يحلّ أخيراً، فاتجه صوب كنيسة أخرى. وأثناء السير، ظلّ يحث الخطى، حتى اضطر بورغينيون إلى الجري، لئلا يفقد أثره.

حطّم غاسبار العمودين الخشبيين اللذين كانا يسدان بوابة الكنيسة، وتقدم بطريقة تنمّ عن المهابة والجلالة، ماشياً فوق البلاط، وسط شمس الصباح، والغبار الرخو الذي استثير بفعل الرجّة، التي حدثت.

لكن القسّ، الذي كان شيخاً كبير القامة، ويابس العود، وذا بشرة بيضاء، أوقفه بصوت حاسم:

- من أنت، يا جحود؟

- أنا الله بالذات والصفات، وكان عليك أن تتعرف عليّ.

رسم القسّ تكشيرة مشبعة بمشاعر الاحتقار، وصرخ فيه وكأنما هو يبصق:

- برهن على ما تقول!

احتار غاسبار في أمره. كان بالطبع ينتظر من القسّ أن يقاومه، إلا أنه لم يكن بالمرة، ينتظر مثل هذا الحقد.

تظاهر القس بخشوع مزيّف، بعد أن أُخبِر بحادث التجلي الكاذب، الذي حصل يوم الأحد المنصرم، وشعر معه بالكراهية اتجاه زميله القس الآخر، الذي انطلت عليه الحيلة. أشبك يديه، ورسم سجدة متملقة.

- ألتمس صفحك عن صفاقة لساني. لكن، إن كنتَ بحق ربي ومولاي وسيدي، فإنك ستكون حينها على علم مسبق بالشكوك، التي انتابت أفضل المخلصين لك. ألم تصنع من توما، الذي رفض الإيمان بك، واحداً من الحواريين والقديسين؟ أرجوك، إن كنت العلي القدير بحق وحقيقة، أن تقدِم على واحدة من المعجزات، لترفع عن عينيّ مخلوق بئيس من مخلوقاتك، الغشاوة والحجاب. حقِّق معجزة واحدة يا سيدي، معجزة واحدة فقط.

وإذا بالجمهور الغفير يرفع عقيرته بالصياح، مؤكداً على ما التمسه القس:

- معجزة! معجزة! سيحقق لنا معجزة!

بحث غاسبار من حوله، وهو مضطرب وحائر، متسائلاً عن أي معجزة بإمكانه الإقدام عليها بالفعل، فإذا برجل يتقدّم نحوه، ويرتمي على ركبتيه:

- إلهي، إلهي، منذ أربعين سنة وأنا أعمى، لا أرى غير

الظلمة. وكنت عادلاً، ومستقيماً، ولا أستحق هذه الظلمة. لذا، أتوسل إليك يا سيدي، بأن تنقذني من ظلمة عماي!

وضع غاسبار، في ردة فعل تلقائية، يديه على جبين وكتف الرجل، ورسم إشارة الصليب على عينيه، وردد بكيفية آلية عبارة: «انظر».

أخرج الرجل من فمه صيحة مدوية - لا أحد يدري هل كانت من شدة الألم؟ أم فرح تحرّره من العمى؟ - ثم قفز على قدميه. أدار عينين جاحظتين على سعتهما، وصاح، وقد فتح ذراعيه في الفضاء، وهو أمام جموع الحاضرين:

- صرتُ أرى، صرتُ أرى! لقد استعدت بصري!

ثم شرع يرقص رقصة مجنونة حول الهيكل، قافزاً فوق المقْرَأ الثقيل المصنوع من خشب السنديان، ومتخطياً المركع بطريقة مخلَّة بالقداسة والاحترام، ضحكت على إثرها الجماهير الغفيرة، من شدة النشوة والسعادة.

التفت غاسبار صوب القس، وهو غير مفاجأ بنسبة المشقة القليلة، التي تسبَّب له فيها ذلك الموقف، ورمى القس بنبرة جافة، قائلاً:

- أيكفيك هذا، يا قليل الإيمان؟ أتعرَّفت أخيراً على سيدك؟

نظر نحوه القس بكيفية ساخرة، وقد نكّس رأسه، وبدا متلذذاً بما سيُجيبه به، وكأنما هو قط حاصر فأراً، في زاوية ما:

- لا أدري إن صار من اللازم عليّ أن أعترف بك سيداً ومولى، أم ليس بعد. إلا أن ما أعترفُ به حقاً، هو أن الرجل الذي أخضعته لأعجوبتك، ليس سوى خياط المدينة الذي لم تكن تنقصه،

في أي يوم من الأيام قط، أفضل عينين لخياطة أدقّ الملابس وأعقدها، لا اليوم ولا البارحة، إطلاقاً.

ودون أن يفهم غاسبار شيئاً، نظر صوب الجماهير الغفيرة، وكانت قد انخرطت كلها في الضحك، نتيجة الخدعة الرائعة التي خدعه بها الخياط، وفي تهنئة بطلها ذلك اليوم.

رفع غاسبار يديه، وطلب التزام الصمت. بعد الصفير والصياح الساخر، انتهى الأمر بأن تحقَّق له ما أراد، لأن الناس كانت تأمل بالفعل، في تحقيق بعض الأمور الجديدة الخارقة.

- ليمنحني أحدكم خنجراً، وعندئذٍ سأثبت لكم من هو الله.

مُنِح الخنجر على الفور. رفعه بكلتا يديه أمامه، وأبقاه ثابتاً للحظة في الهواء.

- إن كنتُ بشراً، فإن الخوف سيصيبني، وسأتمسك بالحياة.

ساد صمت عميق من حواليه.

- أنا الله، إذاً أنا سأقتل نفسي.

وبحركة صلبة وحازمة لا تتزحزح، غرز غاسبار الخنجر في بطنه.

أحس بآلام حادة، وبحرقة. أخرج الخنجر، وألقى به بعيداً غير أنه رأى في لمحة بصر، الدم الذي انتشر تحت صدريته، وهو ينساب على أعلى السروال، وعلى امتداد الفخذين. شعر وكأنه يُفرَغ، وكأن الأرض ترتفع، وكأن رأسه تدور... ثم هوى بالقرب من حافة الهيكل.

سرت البهجة بين الجموع، فأخذ بعضهم يصيح منددًا بخدعة الدجال المفضوحة، وبعضهم الآخر يطلب «المزيد!». كان الرجال

يشتمونه، والأطفال يضربون الأرض بأقدامهم، والنساء يرغبن في رؤيته.

ووجد بورغينيون صعوبة شديدةً في حمل جسد سيده، الذي نزف من دمه.

* * *

جراحات الجسد سريعة الالتئام، لكن هيهات أن تكون جراحات الروح كذلك.

بعد لزوم الفراش لخمسة عشر يوماً، استطاع غاسبار أن يقف، وأن ينحني، ويمشي، وينزل السلم، ويصعده، إلا أن الغضب ظلّ يمور بداخله، وكان غضباً أسود وثخيناً وميئوساً منه.

لقد انتهى الأمر.

صار يكره الناس، ويمقت هذه المخلوقات الغبية، والمُلحّة، والطائشة، والهازئة، وغير المحترمة، وغير الشريفة، وغير المهمة؛ وظلّ يتحسّر بقوة، على كونه عمّر الأرض بتلك الحشرات القميئة، التي حوّلت حياته - باعتباره إله - إلى حياة عسيرة، ومؤلمة.

كل كراهية هي من دون شك حبّ خائب. ولقد ظلت الخيبة مدوخة، بشكل جنوني.

لم يعد يحتمل من أي أحد آخر، أن يقترب منه بالمرة، ما عدا بورغينيون والطبيب، الذي نادت عليه العائلة.

كان غاسبار مسروراً بخاصة، لكونه خلق الأطباء. «هذه هي المرة الأولى، التي لم أقَع فيها في الخطأ»، فكّر في دخيلة نفسه. ضمّد الطبيب جرحه، وخفف عنه، ووصف له الأفيون على الخصوص، كي يهدئ من آلامه.

ابتهج غاسبار لهذا الاكتشاف الأخير، لأن المخدِّر ساهم في جعل الكون محتملاً. إذ كان يكفيه أن يتجرع منه جرعات قليلة، لتصير فتيات المطبخ أسرع ممّا هن في العادة، ويغدو بورغينيون أقل كسلاً وخمولاً، في استجابته للأوامر. إن للأفيون لسلطاناً يستطيع أن يبلغ الأشياء نفسها: فهو قادر على جعل رفّ الكتب، إذ يسقط على الرأس، أخف وطأة، ومن زاوية السرير التي قد يرتطم به ظنبوب الساق، أخف إيلاماً. إن للأفيون باختصار، تأثيراً إيجابياً على الخلق أجمعين، لذلك قرر غاسبار أن لا يستغني عنه، بالمرة.

وذات مساء، كان قد تجاوز القدر، الذي وصفه له الطبيب، فشرب كل ما كان بالقارورة. وفي الحين، غرق في سعادة كبرى، انقشعت له فيها كافة الألوان، وانتهكت فيها الحدود، ولم يعد للبشر فيها من إمكانية للنفاذ إليه؛ وبعدما كشف عنه الطبيب، وهو على تلك الحال، شخّص حالةَ دخولٍ في غيبوبة مؤقتة.

استعاد الطبيب كافة قواريره، وهو غاضب من مريضه، فأقرّ أن غاسبار تعافى، فتوقف عن الزيارة.

وكان غاسبار بالفعل، قد تعافى...

وبزوال المرض، غاب الطبيب.

وبغياب الطبيب، غاب الأفيون.

* * *

وذات صباح، استفاق غاسبار على ضغط شديد في الرأس، نتيجة أثقال غير مرئية.

طالب باستدعاء الطبيب ثانية، فما استُجيب لطلبه، وكان بورغينيون وقتها في عطلة.

جمّع قواه، كي يذهب إلى زيارة الطبيب. مشى لأزيد من ساعتين، ليسمع في الأخير من إحدى القذرات، بأن سيادة الطبيب مشغول بعملية ولادة صعبة في مكان بعيد عن العيادة، وأنه لن يعود قبل حلول الليل.

والشيء نفسه حدث، في اليوم الموالي: فلاحة تلد، في مكان بعيد جداً.

ما من طبيب هناك، وما من أفيون. وهذا الألم في الرأس مستمر...

طريداً، ومتخلّى عنه في الزقاق، ووحيداً مع آلام وجوده، انتبه غاسبار إلى أنه منذ يومين، لا يفعل شيئاً آخر غير أنه يسأل، ويصلي، ويتضرع. لقد كان - هو الخالق - في وضعية السائل الملتمس! وغدا من جديد يرتطم بأبواب العالم، الذي كان هو - مع ذلك - من خلقه!

لقد زاد هذا عن اللزوم كثيراً. وهكذا، انضافت لديه الرغبة في الانتقام، إلى الحقد على العالمين. فعاد إلى القصر، وأغلق عليه في العلية.

ولساعات طويلة، ظلّ يُسمَع صوت انضغاط آلة الطباعة. أمّا هو فلم يخرج إلا في الليل، محملاً بحُزَم ورقية غريبة.

وفي اليوم الموالي، وجدت العائلة والخدم عند استيقاظهم، التحذير التالي مثبتاً على كل باب، من أبواب القصر:

ارتجفوا، أيها الفانون،

فالساعة على وشك الأزوف.

عمّا قريب، سيحلّ يوم الحساب.
وستوْزَن أخيراً،
كل حسناتكم وسيئاتكم.
فخافوا، وتفكّروا،
لأن الساعة آتية، لا ريب فيها.

ضحك الجميع كثيراً، وطويلاً، وبصوت عال.

ولكنهم ضحكوا أقل، حين علموا من الخادمات اللواتي رجعن من السوق، أن غاسبار قد علّق تحذيراته على جدران المدينة كذلك. لقد صارت القضية محرجة، فانتشرت في كل الأرجاء ثرثرة مفرطة، غرق على إثرها آل لانغنير، في التفاهة والمسخرة.

وهكذا، تشكّل بكيفية مرتجلة، مجلس العائلة.

* * *

في نهاية الظهيرة، فتح غاسبار عينيه، فأبصر بورغينيون الذي كان ينظر إليه، وهو قريب من السرير، وعلى وجهه ارتسمت علامات القلق.

- ما بك، يا بورغينيوني الطيب؟ يبدو أنك منشغل البال ببعض الهموم...

- سيدي، ما في الأمر غير ملصقاتك، لهذه الليلة. أنا خائف، وخائف بشكل كبير.

بعدما ابتهج غاسبار لسماع آثار صنيعه على واحد من مخلوقاته، شعر اتجاه بورغينيون بالرأفة.

- لكن ذلك الورق لا يعنيك أنت بالذات، يا بورغينيوني

الطيب. فأنت خادم أمين ومخلص، ولا أملك إلا الرضا عنك. لذا، لا ينبغي لك أن تخاف من يوم الحساب، لأني سأخلِّصك.

- سيدي، ليس الأمر شأني أنا، وإنما هو شأن هؤلاء الآخرين.

- لينالوا جزاء ما استحقوه، أجاب غاسبار بقسوة.

- أنتم غير مطَّلعين على ما يخطِّطون له، يا سيدي. إنهم يريدون اعتقالك هنا، حتى لا تتمكن من التنقل إلى المدينة، على الإطلاق. هم يشعرون بالخجل اتجاهك. لذا، عليكم أن تسرعوا في التصرف يا سيدي، لأنهم سيفصلوني عنكم. بيّنوا لهم من يحكم، بحق وحقيقة. بيّنوا لهم قدرتكم، وما تستطيعون فعله. ألا رفقاً بي، يا سيدي؛ فإن لم تتدخلوا، ألصقوني بالإسطبل مرة أخرى.

ابيضّ لون غاسبار، من فرط الحنق. هكذا إذاً، لم تستوعب مخلوقاته الدرس، بعدُ! بقي صامتاً طيلة دقائق معدودة، ثم لمعت عيناه ببريق الشر. وفي الأخير نطق، وقال بصوت غيّر الحنق من نبراته:

- انسحب يا بورغينيوني الطيب، ونَمْ قرير العين. لسوف أتدخل هذه الليلة. سيفهمون هذه الليلة!... ما داموا اضطروني إلى الوصول، إلى هذا الحدّ!...

ولما خلد البيت إلى الصمت في منتصف الليل، نزل غاسبار مرة أخرى، وألصق على باب كل حجرة، ورقة جديدة كُتِبَت بخط اليد هذه المرة، وكانت خطوطها مكبّرة من فرط الغضب، ومستدقة الرؤوس، وبحلقات منعطفة في حنق.

إنكم في غيكم تعمهون،
ولسوف تبقون في ظلمتكم تعمهون.
غداً، لن يفصح بصبح جديد.
ستكون الظلمة مأواكم.
توبوا عن معاصيكم،
واحترموا خالقكم.
هذا نذيري الأخير،
قبل حلول نهاية العالم.

صعد إلى غرفته، ثم أوقد نار جهنم، في مدفئته.

وحين ارتفعت ألسنة اللهب إلى أعلى عليين، وطقطقت الأعواد، واشتدت الحرارة، أدخل في المجمرة الشباث والحديدة التي تُحرَّك بها النار، إلى أن احمرّا معاً. وبعد ذلك، قرّب الحديد الملتهب من وجهه، من دون أن يتردد، أو يرتجف بالمرة.

ثم ترددت وسط ظلمة الليل، صرخة عالية.

حُثّت الخطى، في اتجاه علية البيت.

أمام موقد النار، ووسط حرارة خانقة، وُجد جسد غاسبار فاقد الحركة، بعينين مسمّلتين.

وفي العلية كلها، كانت تنتشر رائحة لحم بشري محروق.

* * *

صار غاسبار أعمى.

وحين استعاد وعيه أخيراً، اندهش: ليست الظلمة سوداء، وإنما هي حمراء؛ لها لون النيران الملتهبة.

كانت بعض الأصوات تأتيه، فميّز من بينها صوت البكاء، الذي كان يحيط به، وكان صوت بورغينيون وبعض النسوة الأخريات، ثم انزعج لعدم تعرفه على الجميع.

- بورغينيون، يا بورغينيوني الطيب، آه لو تعلم كم أتألم...

- آه! يا سيدي، أجاب بورغينوين، قبل أن تخنقه العبرات.

- الناس هي التي شاءت هذا، يا بورغينيون. وإلا ما كنت وصلت إلى هذه الحال وحدي، لأن الله طيب. لقد حكمت على الناس بهذا، حتى أسمح لهم بأن يخلصوا أنفسهم. إن هذا من أجلهم، من أجلهم، لأني - وعليك أن تثق بي - أعاني، أنا أيضاً. لقد حذفتُ المرئي، لكني أتألم يا بورغينيون، أتألم كثيراً.

وأمسك - في اختلاج - بيد بورغينيون، وكانت مبتلة بالدمع.

- لكن أنت أيضاً تعاني، يا بورغينيوني المسكين، ولا تستحق هذا كذلك. سامحني، ما كان في مقدوري أن أفعل غير هذا.

حاول أن يغوص في مخدته، بشكل يتيح له أن يستريح أكثر، إلا أن الآلام كانت تنتشر في كل مكان.

- من الآن فصاعداً، ستشمون عبير الورد، لكنكم لن تروا الورد أبداً، وستدفئ الشمس عظامكم، لكن من دون أن تضيئكم الشمس، ولن يناجي الشعراء بالمرة، لا القمر ولا النجوم. ولن يكون للرجال والنساء من جارحة أخرى ليتحابوا، غير الجلدة والأنف... ليس عن المرئي أبكي، وإنما الذي يبكيني هو جنون الناس، الذي أرغمني على إنزال العقاب بنا جميعاً، وبهذه الطريقة. أما الآن يا بورغينيوني الطيب، فأطلب منك أن تتركني؛ وأنتم كذلك، اتركوني.

لدي هذه الآلام، التي عليّ تحملها، وهي آلام استئصال المرئي . . . اتركوني.

كانت الأسرة، وقد أسِفَتْ لحماقته، متأثرة أشد التأثر لحالة عجزه، فأبدت له في تلك الأيام، عناية أكبر ممّا كانت تخصّه بها، في وقت سابق. شعر غاسبار أنه محق، وردَّد في قرارة نفسه بأن الظلمات أصبحت طبعهم. ولا شك أن الخوف أصبح كذلك، من طبعهم . . .

بقي بورغينيون ملازماً لسيده باستمرار، بحيث يجلس طوال الوقت قريباً من السرير، وينام بجواره، وهو الأمر الذي لم يكن ليمر، دون أن يتسبب لغاسبار مع ذلك في بعض الانزعاج، لأن ذلك الخادم ظلّ يصدر الشخير أثناء نومه، إلا أن سيده رغم كل شيء، وجد في الاحتفاظ بذلك المخلوق الوفي بالقرابة منه، نوعاً من الامتياز واللطف . . .

واستطاع غاسبار في الأخير، أن ينهض من سريره.

في المرات الأولى، ظلّ يفقد التوازن، إلا أن بورغينيون كان يسنده، ويساعده. ثم ألحّ بعد ذلك، على الانتقال لوحده في الظلام.

لكن نار جهنم ما فتئت أن عاودته. وكانت حتى أفظع، لأن عنفها تضاعف. ليس الناس وحدهم، من كان يعتدي على غاسبار منذ ذلك الحين، وإنما الأشياء أيضاً، بما في ذلك الحيطان، والأبواب، والزوايا، والأثاث، والأعمدة المنحدرة؛ لقد ظلّ غاسبار يرتطم بكل شيء، حتى إن جسمه ما عاد سوى مجموعة من الأثلام والأورام. هو ذا العالم إذاً، صار منذ ذلك الحين، يكشف

له عن الوجه الحقيقي، وكان وجهاً شائكاً، وثاقباً، وحاداً. لقد كان يعاني عنفاً لا ينتهي.

هل سيكون من اللازم، بعد حذف المرئي، حذف الملموس كذلك؟

إن العيش صار صعباً وشاقاً.

* * *

فرض العمى على غاسبار، أن يطوّر حاسة السمع.

ألم يلتقط في البدء، ثرثرة الخادمتين في البهو؟

قالت إحداهما للأخرى:

- ألا تعانين الأمرين من كونك لا ترين شيئاً؟

- أبداً، أجابت الثانية. قد تيسّر لي بالأحرى، الظلمة التي تسبق يوم الحساب، تجارب الحب.

قهقهتا للحظة.

- إني لأعاني من ذلك بمقدار قليل، قد يجعلني أدرك ذلك وحدي، استأنفت الثانية تقول: ومن السعيد أيضاً، أن كان هناك في اليوم الأول، ما يكفي من الضوء، كي يُتلى علينا الملصق، الذي كتبه السيد المسكين!

ثم ضحكتا من جديد.

أغاظت هذه الحادثة غاسبار كثيراً. وكان هو من قبل، قد رفض فحصها، والتفكير فيها بعناية، ومع ذلك فإنها جعلته متضايقاً.

ثم سارت الأيام في عقب الأيام. وكانت شديدة الإيلام دائماً. وفي كل لحظة، كان غاسبار يكتشف أن ما أقدم عليه من فعل، ظلّ عديم الجدوى. وكان يتأذى من الكل، كما كان الكل يؤذيه. فأين له

من مفر؟ في النوم، يبيت أسير أضغاث أحلامه؛ وحين يصحو، يصبح أسير العالم...

وكان بورغينيون هو الذي عجّل بحكم القدر عليه، من دون أن يريد ذلك.

ففي يوم ما، وبينما نزل غاسبار من العلية، وأخذ يخبط الأرض أمامه خبط عشواء، باحثاً عن بعض الدفء فوق كرسي الحديقة، إذا به يسمع من جهة السلالم، أصواتاً صادرة عن غرفة الخدم.

كانت المرأة تقول:

- هيه! اتركني، لا تضغط علي كثيراً، حتى تقرّبني إليك. إنك أفرطتَ في شرب النبيذ، ولهذا فقد يضبطوننا متلبسين. أتركني، قلت لك.

- لكن، أنا لا أريد تركك، ردّد صوت ذكوري، سرعان ما تعرف عليه غاسبار.

- أترك هذه التنورة يا بورغينيون، فأنا لست راغبة الآن، ثم إن سيدك قد ينادي عليك.

- فليبنادِ علي، إذاً. يا له من سيد! إني أستخفّ منه. في كل الأحوال، هو شديد الجنون، إلى حدّ أنه قد يجد بمفرده، تفسيراً يبرر به غيابي.

- وهذا التفسير، ألن يكون صائباً؟ ضاحكةً، سألت المرأة التي كانت صيحاتها المتقطعة، تشير إلى أنها صارت تذعن.

- من غير شك، لا. لن يكون صائباً. لأني أنا أؤمن بالواقع، خاصة حين يكون هذا الواقع بديناً، مثلما أنت بدينة. أجيبيني يا

لئيمة، لمَ لبست هذا الفستان ذا الرقبة المقوّرة، وأنت تعلمين جيداً، بأني لا أستطيع امتلاك نفسي، كلما رأيته؟

- هيه! ربما من أجل هذا لبسته.

ثم تلت ذلك الحوار سلسلة من القهقهات، لم يكن غاسبار قد سمعها، على كل حال. أيكون حتى بورغينيون قد تخلى عنه، إذاً؟ صار الوضع واضحاً: رغم العقاب الأول الذي أنزله بخليقته، على سبيل الإنذار، ها هي الخليقة لا تزال تتمادى في غيّها، وتتمرد عليه. برأس مسكونة بالدوار، وقلب مثقَل بالهم، صعد غاسبار ببطء مرة أخرى إلى عليته، وأغلق فيها على نفسه.

لقد صار من اللازم، وضع حدّ لهذا العصيان.

* * *

هادئاً جداً كان غاسبار، حين جاءه التصميم من تلقاء ذاته؛ لقد انتظر هذه اللحظة بحكمة، لينكشف له فيها ذلك التدبير القويم، مثلما ينكشف من تلقاء نفسه قوس قزح، بعد العاصفة.

لم يعد إغراق العالم في الظلمة الليلية، بالأمر الكافي. لسوف يزيحه كلية.

كان غاسبار مصمماً وعازماً: سيضحي بالعالم قاطبة، هذا المساء!

أخيراً، سيغدو وحيداً...

وحيداً مع نفسه، دون تخفٍّ وراء الأشياء، ولا وراء المكان، ولا البشر، ولا كل هذه الهامات المعترضة، والمقيتة. وحيداً برفقة نفسه، في راحة وسكون لا نهاية لهما، يسميان: الخلود الأبدي...

ضغط غاسبار بقوة، على قارورة الأفيون في يده. إن البشر

لهزأة، حقاً! إنهم ليقدّرون حيواتهم تقديراً كبيراً، في حين لا يقيمون لي أي اعتبار، ولا يهابونني. ومع ذلك، فإني أستطيع بهذه القارورة البسيطة، أن أجعلهم جميعاً في خبر كان. إني أتحكّم في السلطة بين يدي. أتحكّم في العدم! وفي الخراب! وفي الحل النهائي! ويوم الحساب يرقد في قرارة هذه القارورة! لسوف أهلكهم جميعاً!

الهلاك؟

ابتسم غاسبار.

أجل، الهلاك. إن البشر لينعتون ما سأقدم عليه بصفة «الهلاك»!

صار الضحك هزءاً.

الانتحار؟

لستُ أنا من سيموت، يا بُلَهاء، وإنما أنتم! أنتم جميعاً!

لستُ أنا من سينتزَع من الكون انتزاعاً، وإنما الكون هو الذي سيُنزَع مني!

تمدَّد غاسبار على السرير، وراح يبحث عن وضعية مريحة. ثم أخرج من صدره تنهيدة، تشي بالراحة.

وداعاً أيتها النجوم، ويا روائح الأفواه الكريهة، والكلمات المتكتمة، والأثاث المستدقة الحواشي، ودرجات السلم، وتقلص الربلات، والنساء الحرونات، والكلاب المجنونة. وداعاً أيها الفضاء! لن أتيه بعد الآن بين الأشياء. لسوف أختصر المسافات على نفسي، وسأوفّر على ذاتي الأبواب التي تُفتَح، والتي تغلق، والطرقات التي تُقطَع، والأذرع التي تُفرَد. سأتحاشى الليل، والتعب، والراحة، وساعات كنت أضطر فيها إلى تنويم جسد

منهك، وأتوق فيها لو أقطع - لحظتها - رجلي بالمنشار، وأنتزع قدمي، وأكسر ظهري، فأحاول ساعتها، لقصوري عن الخروج أبعد من جسدي، إلى إغراقه في نوم عميق. في الراحة، الراحة الشنيعة، يا قبيلة العيش المتعب...

يا لها من فكرة بلهاء، الفكرة التي دفعتني إلى أن أتجسّد! إنه لتثقيل عبثي للوجود! ترى، من أجل أي ومضات المتعة العابرة، كان عليّ أن أعاقب نفسي، بتعريضها للجوع، والحرارة، والعطش، والألم، والبرد، والوخز، وهذه الحروق، وكل أوجه هذه الحياة البشرية، التي ظلّ جلدي يعاني فيها؟...

فعلى ماذا سأندم؟

على رائحة الزهور في المساء، تحت الخميلة؛ وعلى سماء أرجوانية اللون، لحظة الغروب؛ وعلى فخذ امرأة متنفذة، لها عينان ذهبيتان تشبهان عيني قط...

إن التفاصيل وحدها هي أجمل ما في الكون، بينما المجموع مضجر، ويدعو للسأم.

سأستغني عن الزمن الذي يمضي ولا يمضي، والذي حين يمضي، يصطدم بي، ويؤثر علي، ويعنّفني. إن الزمن لينتمي إلى الأشياء. وبانتزاع الأشياء، سوف أنتزع الزمن.

سأعمل على حذف كل الحدود، التي تحدّدُني. المكان انتهى! والزمان انتهى! وليس ثمة جسد! وحيدٌ أنا... وغير مُحدَّد، ولا ومحدود، ولا نسْبي... وأخيراً، سأغدو مطلقاً... وسأحيا الحياة الأسيلة الخالدة...

لا شيء.

لا شيء، إلا أنا.

وأنا لست لا شيء.

لا، لا، لست لا شيء.

نهض غاسبار، بطريقة عصبية.

وماذا لو؟...

لا، لا، ذلك مفرط الرعونة...

انساب التفكير في دخيلائه، انسياباً نافذاً وثاقباً.

وماذا لو اختفى هو مع اختفاء العالم؟

أجبر غاسبار نفسه على الضحك، بكيفية مفرطة في الجلجلة، ثم وقّع بصوت عالٍ: «الخالق لا يموت مع موت خليقته، لأنه فوقها، ويقع خارجها، ومتعالٍ عنها».

هوت قطرة باردة على قفاه.

متعال! وموجود خارج كلّ ما أتمثله، أو أخلقه. أنا هو أنا، وإن أنا لممتلئ، ودائري، وشيء ما.

شقتْ ظهره بعض الارتعاشات.

هل النظرة التي لا ترى شيئاً، تبقى دائماً نظرة؟ والوعي الذي لا يُدرك شيئاً، هل يبقى هو الوعي ذاته دائماً؟ ألا يصير الوعي بلا شيء، لا شيئاً من الوعي؟

هجمَت عليه الحمى والرعشات.

بلى. سأكون أنا، سأكون الوعي بي. ولسوف أكلّم نفسي!

أكلم نفسي؟

لكن حتى التكلم لن يكون ممكناً، بالمرة. إن الكلمات

المشكَّلَة في أصوات، سيحلّ بها الخراب، باختفاء العالم. لن يكون ثمة إلا الصمت المطبق.

وضع غاسبار يده جهة قلبه، الذي كان يخفق بسرعة مفرطة، وكأنما تلك اليد تملك سلطة ما، قادرة على جعله يهدأ. لن يكون ثمة إلا الصمت... غير أنه تعوّد على الكلام، على استعمال لغته، تلك الفرنسية السريعة والدقيقة، التي تشبه قائمتي دُورِي صغيرين، حين يجري فوق ميزاب.

إنما لا، لا ينبغي عليه أن يندم على شيء. اللغة في حدّ ذاتها، فساد وضلال. وقد عكّر علي جنون البشر كثيراً، إلى الحدّ الذي انبريت معه أتكلم مع نفسي، أنا أيضاً، كمن يكلم شخصاً آخر. أكلم نفسي! مثل غريب! وكأنما كنت في حاجة إلى ما تخلقه الجمل، من سبل للّفّ والدوران، حتى أفهم نفسي...

تنهد غاسبار، وعاد من جديد ليتمدد، محاولاً أن يسترخي. لا كلمات بعد الآن، ولا حكايات... صمتٌ ثلجي مديد، وحسب...

وماذا لو صارت الأبدية مملة؟

هيا، دعك من هذا! لا يملّ المرء إلا مع الزمن. أما خارج حدّ الزمن، فسأكون سالماً، ومنشدّاً إلى الوجود بشهية، دون جسد، ولا آخر غيري، ولا كلمات. خالداً وأبدياً. روحاً خالصة، خلوصاً يشف عن ذاته.

جرع غاسبار الجرعة الأولى.

سأكون كل شيء مثل لا شيء، إنما سأكون كل شيء. المكان سجني، والزمن عقوبة، وأنا ما عدت أرغب في ذلك. سأحرر نفسي منه. أنا الضرورة.

اخترقته رعشة.

وماذا لو بقي يحتفظ ببعض الذكريات؟ وماذا لو لن يحوْل قتلُ العالم في دخيلته، بينه وبين الحلم به، أو بالأحرى رؤيته في الكوابيس؟ وأنه سيبقى أسير ذاكرته، إلى أبد الآبدين؟...

كي يهدأ، شرب غاسبار ما تبقى من السائل.

هيا، دعْ عنك هذا، فإن ذلك ليس ممكناً. سأقتل كافة الصور، والأصوات، والروائح، والوجوه. ولن يفضل في ذاكرتي منها شيء. فأن تحلم، معناه أن تبقى غائصاً في ما هو محسوس. في حين، ستكون الأبدية من غير أحلام.

لعق غاسبار القطرات الأخيرة المتبقية على عنق الزجاجة، وانبسط بكيفية تامة.

وجد أن حشية السرير كانت صلبة شيئاً ما، فأخذ يبحث عن وضعية أكثر مدعاة للراحة، تاركاً نفسه يستسلم للاسترخاء، دون إتعاب نفسه بالتفكير في أي شيء، بتاتاً.

وبعد مضي دقائق معدودة على ذلك، انخرط الله في سباته الأخير، حاملاً معه العالمَ في اتجاه عدمٍ، لن يستطيع الخروج منه بالمرة.

قد يكون الفجر. خيط ضئيل من الضوء تسرّب إلى مكتبي، بينما دوّت خمس دقات كئيبة ووحيدة. ظلّ العالم إلى ذلك الحين، مجرد كتلة من الصمت.

أعدَدْتُ القهوة. كان الوهن الذي تلا عملية الكتابة، قد أثقل ذراعي وكاهلي؛ شعرتُ بتعب كبير، حال بيني وبين مواصلة الكتابة، إلا أني بقيت مفرط الحماس مع ذلك، حتى أقعد من غير شيء؛ لذلك انخرطتُ إذاً، في إعادة كتابة نصي بمداد بنفسجي.

وفي الساعة السابعة، كانت المخطوطة قد جفّت. فتحتُ النافذة، فإذا بنهار شاحب يحتكّ في تردُّد، بحيطان وجدران باريس؛ وفي الأسفل، كانت الحياة قد استعادت إيقاعها، فنزلتُ إلى الشارع.

استهدفتُ طفلاً صغيراً؛ طلبتُ منه مقابل قطعة نقدية، أن يحمل تلك اللفافة الورقية التي انتهيت منها، إلى عنوان الشيخ؛ وكنت قد أضفت إليها مظروفاً، أعلنت فيه عن اعتزامي زيارته، ظهيرة اليوم الموالي. وهكذا، لم يأخذ الطفل الصغير من الوقت، سوى النزر القليل الذي سوّى فيه قبعته، ثم انطلق، وهو مبتهج للمقترح الذي عرضته عليه، ومشغول بالرغبة في البرهنة على اختياري المتفوق له، يعدو صوب العنوان المطلوب.

من المفترض أن أكون نِمْت أكثر من نهار وليلة، لأني لم أستيقظ إلا قبل ساعات محدودة عن موعدي مع العجوز. وما إن استعدتُ مزاجي، حتى ارتديت بصعوبة كبيرة قميصاً نظيفاً، وبلعتُ قطعة من الخبز البائت، ثم تخطيت أكداساً مكدسة من الكتب، والورق، والملابس، والفضلات، التي ظلت تتراكم في الممر. وحين أغلقت من ورائي الباب، صممت إما على إفراغ هذه الشقة مما تراكم فيها في اليوم الموالي، أو على الرحيل عنها صوب شقة أخرى.

وصلتُ إلى العمارة القاتمة ذات المدخل الشديد العتمة، والتي لا جمال فيها. ثم بلغت إلى الشقة 202، وكان الباب مغلقاً، بخلاف المرة المنصرمة، فقرعتُ الجرس.

قرعته من جديد.

«الشقة فسيحة، وقد لا يسمع الشيخ دقات الجرس»، فكّرت.

ما من جواب.

قرعتُ، وقرعتُ من جديد. وطبطبتُ على ضرّابة الباب، وقرعتها قرعاً شديداً، مخافة أن يكون العجوز ثقيل السمع.

وما من أحد يجيب.

استبدّ بي الذعر. نزلت درجات السلالم مسرعاً، بحثاً عن بواب العمارة، أو حارس، أو جار، أو أي أحد ممّن يُفترض أن يكون لديه مفتاح ثانٍ، غير أن محاولاتي أخفقت! كانت العمارة مقفرة. لم أصادف سوى ممرات وأبواب موصدة، وما من روح حية.

تملَّكني الإحباط، وأنا مقتنع بأن العجوز مات. صعدتُ بسرعة، وكنتُ على استعداد لاقتحام الباب، لكن ما إن أمسكت

بقبضته، حتى طاوعني دون ممانعة منذ الوهلة الأولى، وانفتح بهدوء شديد، وكأنما ليخفف ما تروّع بدخيلتي.

صارت الشقة منذ ذلك الحين وضاءة، وحيطانها مطلية بلون أبيض وضاح. لقد صارت تشبه تماماً، ما توقعت أن أصنعه بشقتي. ترى، كيف أمكن أن تُنجَز مثل تلك الأعمال، في يومين اثنين؟ لربما أخطأت الطابق، قلت في نفسي...

لكن، ثمة في عمق الممر، حيث وُجِد المكتب سابقاً، مظروف يحمل اسمي، وُضِع على بساط جديد، في حجرة فارغة.

صديقي العزيز،

هذه بعض العناصر، لتلخيص الوقائع:

1736: الموت المفترض لغاسبار لانغونهيرت. إلا أن ما من شيء في الواقع، يثبت ذلك. وما من أحد يعلم مصدر هذه الإشاعة.

1786: الإشارة إلى صورة غاسبار لانغونهيرت الشخصية، وهي الصورة التي لم يعد لها من وجود بالمرة، وقد صدرت الإشارة في كتاب: **مجمع لوحات كبار القوم**، وهو عبارة عن أضمومة تجمع رسوماً لمجموعة من المنحوتات. وثمة أضمومة مزيفة نشرها مزّيف مجهول الهوية.

1836: نشر تقرير عن أنشطة المدرسة الأنانية، في كتاب جان بيير بابتيست نيري الموسوم بعنوان: **مذكرات رجل شريف**، وقد نشره هنري رانييه لالو. لكن، من يكون جان بابتيست نيري؟ ومن يكون هنري رانييه لالو؟ ما الذي أنجزاه غير ذلك؟ وهل تتم الإشارة إليهما، في كتب أخرى؟ أليسا الشخص الواحد نفسه؟

1886: نشر محكي غراميات غاسبار لانغونهيرت، ضمن مخطوطة أميدي شامبوليون. لكن من هو شامبوليون هذا؟

1936: أفكار غاسبار حول الدين، كشف عنها شهير مجهول، هو أنا بالذات. لكن، من أكون أنا؟

1986: موت غاسبار لانغونهيرت، وقد وقع سردها من قبلِك أنت. ويتعلق الأمر هنا، ببيان مزيف. لكن من هو المزيّف؟

وهكذا، يُقدِّم مجهولٌ ما، أو اسمٌ لا شيء يثبت هويته - في كل خمسين سنة تحديداً - بعضَ المعلومات غير المسبوقة عن فيلسوف، يزعم الناس أنه توفي في زمن لويس الخامس عشر. في كل جيل، يأتي مَن يستصلح حقلاً جديداً غير مطروق، من حقول فكر غاسبار لانغونهيرت.

أليس هناك شخص واحد ووحيد، وراء كل هذه الكتابات؟ من ذا الذي يثبت لنا بأن غاسبار لانغونهيرت قد مات حقاً؟ وأين دُفِن؟ وهل يمكن التعريف بالأرض التي احتضنت رفاته، والديدان التي نهشت لحمه؟ ألا يستأنف الحديث، في كل خمسين سنة؟ ألا يتجلّى مرتين في كل قرن؟ وهل يمكن لمن ليس له وجه، ومن كان سوى روح، روح فسيحة، أن يهلك مثلما يهلك البشر، وتموت الأشياء؟ صدقني، وصدّق نفسك، وفكّر: إن غاسبار لانغونهيرت حي على الدوام. ولن يموت.

كم ساعة مضت؟

وأين تراها مضت؟

لم أستعد وعيي، إلا حين توغّل زمن الليل؛ ولمّا كشف عليّ ضوء معْمٍ، سلّطه في اتجاهي قاربٌ للنزهة، وجدتني أستند بمرفقي إلى حاجز جسر نوتردام، وقد غرقت في تأمل الماء الأخضر المخلوط بالزرقة.

تفحصت يدي، ومررت راحتيهما على صفحة وجهي، أتلمسه. ثم ابتدرتني بتساؤل داهم: أأنا هو غاسبار لانغونهيرت، منذ ذلك الحين؟

باريس في: 02/ 01/ 93

البروفيسور أرماند بروسي
مصحة سانت أنيون
12، شارع موليني
75013، باريس.

إلى: الآنسة هارييت سوميرفيل
مينيسوتا

الآنسة العزيزة،

يؤسفني أن أنعي لك موت قريبك بعيد النّسَب، جيرار لاغيري، الذي وافته المنية مؤخراً، عن سنّ الثالثة والثلاثين. إنّ داء التفسّخ العضلي، الذي ظلّ ينخر جسده منذ عدة سنوات، ظفر أخيراً بروحه.

لسوف يخبرك الأستاذ باريي الموثّق، بشكل دقيق، بتفاصيل الثروة التي تركها له أبواه، وهي الثروة التي لم يَتصَرَّف فيها الفقيد بالمرة، لأنه قضى تقريباً، أغلب فترات رشده نزيلاً في مصحتنا.

لا أستطيع أن أتلفظ في يُسر، بالعبارات الطيبة التي يذكُر بها الناسُ، كلَّ مَن وافته المنية عامة، وهو في ريعان شبابه، لأن قريبك لم يفعل أي شيء يذكر، كي يحبّه الناس، ولم يكن يتحدث إلا في النادر جداً، سواء مع بقية المرضى الآخرين، أو مع الطاقم الطبي، بل لقد غدا مع مرور الأعوام، متكتماً وصموتاً أكثر، وكأنما لم يعُد يعنيه أحد، بل وكأنما لم يعُد يوجد من حوله، أي أحد.

لقد وجَدْنا في غرفته، هذا السِّجل المسَفّر بالجلد الأحمر، الذي له حواف بنفسجية. وهو السّجل الذي قد يكون، بحسب أقوال الممرضات، انشغل بملء صفحاته في السنوات الأخيرة من حياته، بخط مُتناهٍ في الصغر، قبل أن يمتد إليه العمى وشلل اليدين، فيجعله ذلك غير صالح للقيام بأي عمل.

كانت الشهور الأخيرة التي عاشها الفقيد، فترة عصيبة للغاية. ظل يتحدث أثناءها عن «عجوز»، ويردّد أنه ذلك «العجوز»... لقد أدرك بلا ريب، أنه شارف على النهاية.

أعترف لك بأنه كان من الصعب عليّ، أن أحسّ اتّجاه قريبك بأي تعاطف عميق، إلا أني ظللت أشعر إزاءه على الدوام، بقدر كبير من الشفقة. فقد شعر في لحظات يفاعته الأولى، هو الذي ظل يتيماً منذ نعومة أظافره، ومصاباً بتشوه خلقي رهيب في وجهه، تسبب له في العيش بعيداً عن تعاطف الناس معه؛ شعر بفظاعة ذلك الداء الرهيب: داء تفسّخ العضلات، الذي كان من المؤكد أنه سيودي بحياته. ولم أستطع منع نفسي أبداً، من أن ترى ذلك الشخص المتوحّد مع ذاته، والمحجوز في غرفته صحبة أفكاره، والمجبر مع

ذلك على الحلم بحياة، لا يقوى على عيشها؛ وكأن ما رأيته عليه كان استعارة بليغة، تلخِّص وضعنا البشري كله...

من دون شك، ستتعرفين على وضعه أكثر، حين تجوبين دروب هذا المحكي، الذي سمحتُ لنفسي بالاطّلاع عليه بشكل متسرع، دون أن أستوعب جيداً، حول مَن يدور. إن قريبك يشير في هذا المحكي، إلى بعض عمليات البحث والتنقيب، التي قد يكون أجراها في المكتبة الوطنية، وبعض الدول الأجنبية الأخرى، ومنطقة النورماندي الفرنسية. لكن، متى قوي على القيام بذلك يا ترى، خاصةً إذا ما وضعنا حالته الصحية في عين الاعتبار؟ أحصل ذلك أيام العطل، التي استفاد منها هنا وهناك، خارج مصحتنا؟ يبدو لي أن هذا أمر قليل الاحتمال.

لذلك إذاً، اعتقدتُ جازماً بأن الأمر مختلق اختلاقاً كلياً. إلا أني حين التقيت بالسيد ريفال، خلال لقاء جمعني به عرضاً، وهو بالمناسبة أستاذ بالكوليج دو فرانس، علمتُ منه لدهشتي الكبرى، أن غاسبار لانغونهيرت فيلسوف الطائفة الأنانية، الذي تحدّث عنه قريبك، هو شخصية وُجِدت بحق وحقيقة، في التاريخ! فما الجانب الصادق من هذا المحكي، يا ترى، وما الكاذب؟ أنا غير قادر بالكل، على الحسم في هذا، لأني لستُ سوى مجرد رجل علم بسيط. إلا أن البروفيسور ريفال بالذات، قد بدا متحمساً لوجود هذا النص، الذي دبّجه قريبك. وبهذه المناسبة، طلب مني بإلحاح شديد، أن ألتمس منك - إن كان ذلك في مقدورك - إطلاعه على هذا النص.

وقد أكدتُ له من جهتي، أنك سوف تقبلين طلبه من غير شك،

موضحاً أني لا أرى فعلاً، ما الذي قد يدفع فرداً بعيد النسب في العائلة، إلى أن يهتم بالفقيد في مماته، بمقدار أكبر ممّا اهتم به في حياته.

ما من شك يا آنسة، في أنك ستسامحينني على استعمال العبارة الأخيرة الساخرة، التي تومئ بلا ريب، إلى حنق طبيب عجز أمام الموت، أكثر مما هي تحمل نوعاً من العداوة حيالك.

وتقبلي آنستي، أصدق مشاعر الاحترام والتقدير.

البروفيسور أرماند بروسي

إيريك إيمانويل شميت

طائفة الأنانيين

ماذا لو لم تكن الحياة سوى حلم؟ وماذا لو لم تكن السحب، ولا العصافير، ولا الأرض، ولا البشر الآخرون، سوى رؤيا يتصورها ذهننا؟

في المكتبة الوطنية الفرنسية، يكتشف أحد الباحثين وجود مفكر غريب الأطوار يُدعى غاسبار لانغونهيرت، يدافع عن نظرية فلسفية «أنانية»، تقوم على مسلمة قائلة بأن العالم الذي نعيش فيه، هو عالم غير موجود في ذاته، وإنما هو نتاج أصيل لفكرنا. بعد هذا الاكتشاف المحير، ينطلق الباحث في مغامرة البحث عن هذا المفكر الغريب، متنقلاً حيثما تقوده تحرياته لاكتشاف هذه الشخصية الفريدة.

لكن جميع السبل التي قادته إليها خطوات بحثه، تظل قصيرة وملغزة. ترى، أهي مؤامرة؟ لعنة؟... إن باحثنا، وقد اقتفى آثار غاسبار لانغونهيرت وبعض مريديه، وتنقل بين باريس وأمستردام، كان يقوم بعمليات بحثٍ وتحرٍّ في أعماق نفسه هو بالذات، ناقلاً معه القارئ ضمن دوامة من الشك والأسئلة الوجودية.

بأسلوب سهل وبسيط، تنقلنا هذه الرواية إلى واقع آخر. موضوعها أبدي، نهايتها مسلية، ومضمونها حافل بمقولات تستهوينا لتدوينها وتذكرها بين الحين والآخر.

إنها بحق عملٌ أدبي طريف، محركٌ للفكر، مثيرٌ للوجدان.



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



لوحة الغلاف للفنان سعد بن محمد